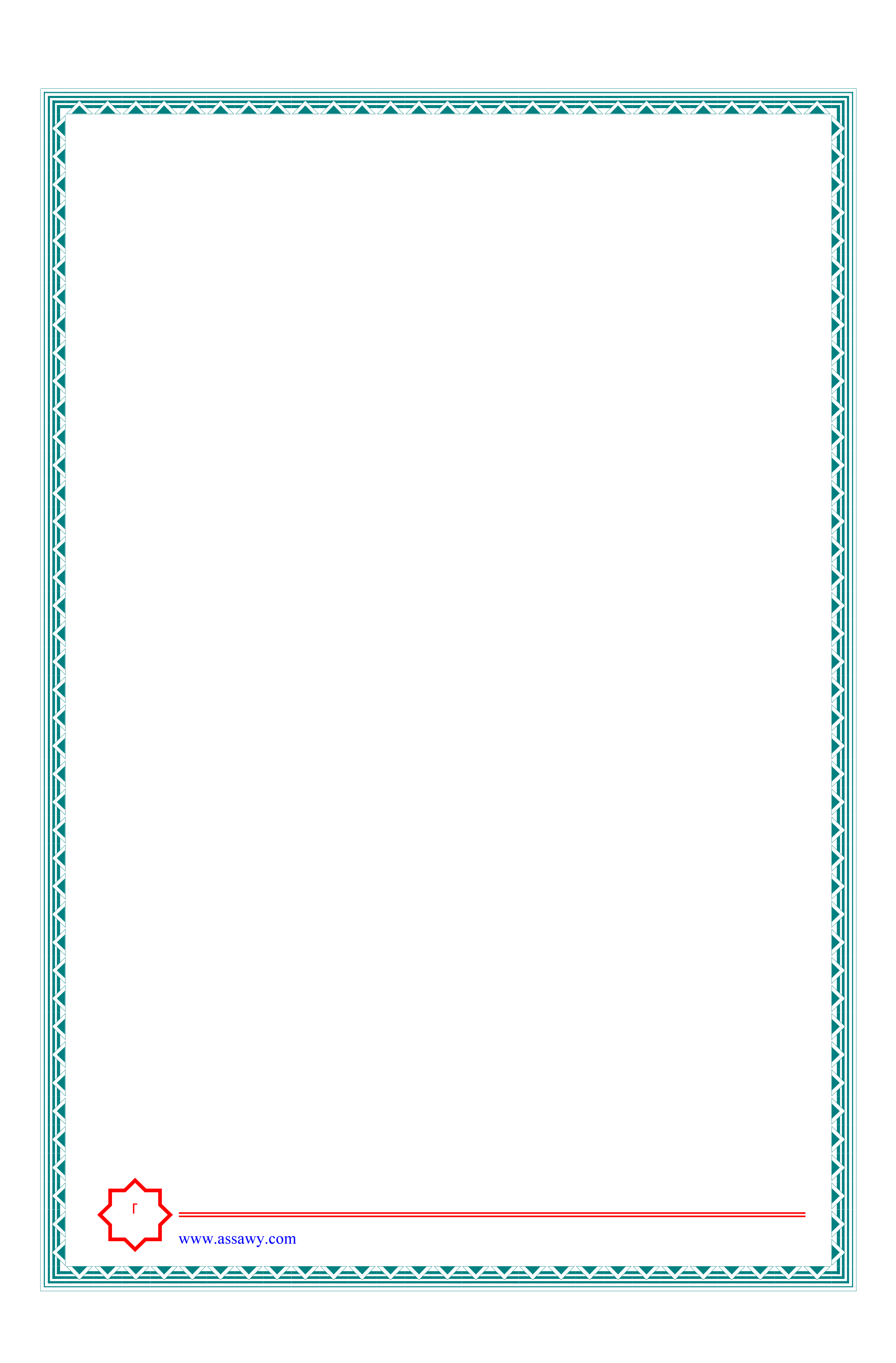
# أصول الإيمان

تأليف

الأستـــاذ الدكـــــتور/
صـلاح الصـــاوي



# الوحدة الأولى

## أولا: الإيمان بالله هو الفطرة

إن الله تعالى قد فطر عباده على الإيمان به، وأخذ بذلك عليهم الميثاق في ظهر أبيهم آدم، ثم أرسل الرسل بعد ذلك مبشرين ومنذرين ليذكروهم بهذا الميثاق الأول وليردوهم إلى ما فطروا عليه من الإيمان بالله والإقرار بربوبيته.

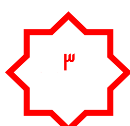
★ قال تعالى مشيراً إلى فطر عباده على الإيمان: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [ الأعراف: ١٧٢-١٧٣] .

فيخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه .

★ وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [ الروم:٣٠] .

وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بالفطرة في هذه الآية هو الإسلام .

★ وقال ﷺ : (( ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيهامن جدعاء )) [متفق عليه واللفظ لمسلم ]، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾، والمعنى أن أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه بعد أن ولد على الفطرة، كما تجدع البهيمة بعد أن خلقت سليمة.



★ وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فكان مما جاء في خطبته: (( إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل ما نحلته عبادي حلال، و إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا )) [ رواه مسلم ] .

★ وقال ﷺ : (( يقال لرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به؟ فيقول: نعم، فيقول الله: كذبت، قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي )) [ رواه أحمد والبيهقي ].

# ثانيا: الإلحاد شذوذ طارئ

وإذا كان الإقرار بالإيمان هو الفطرة التي فطر الله عليها عباده فإن الإلحاد غاشية طارئة خرج بها أصحابها عن أصل الخلقة ومقتضى الفطرة، بل تخلفوا بها عن مواكب العقلاء، واستباحوا بها الاسترسال مع الأهواء والشهوات بلا حريجة من دين أو خلق، حتى قال بعض المفكرين واصفًا هذا الإلحاد: إنه إلحاد بطن وفرج، وليس إلحاد عقل وفكر !

ولا يصح إذن ما يزعمه الزاعمون من أن الإنسان الأول قد بدأ مشركًا يعبد التوتم ثم ترقى بعد ذلك حتى انتهى إلى التوحيد؛ لأن التوحيد ليس صناعة بشرية وإنما هو هداية ربانية فطر الله عليها عباده، وأخذ بها عليهم المواثيق في ظهر أبيهم آدم، ونصب عليها من الدلائل في الأنفس والآفاق ما تقوم به الحجة على الناس كافة - حاضرهم وباديهم على حد سواء، هذا.. فضلاً عن أن الإنسان الأول هو آدم - عليه السلام - وقد كان نبيًا من الأنبياء وحاشاه أن يشرك بالله .

# ثالثا :شرف علم الإيمان

إذا كان شرف العلم بشرف المعلوم فلا يخفى أن علم الإيمان هو أشرف العلوم على الإطلاق لتعلقه بمعرفة الله تعالى وإفراده بالعبادة، والكفر بكل ما يعبد من دونه، مع ما يقتضيه ذلك من فعل الخيرات وترك المنكرات.

وإذا كانت أهمية العلم تتناسب مع ما يجلبه للإنسان من خير أو يدفعه عنه من شر، فإن علم الإيمان هو أهم العلوم على الإطلاق لما يترتب عليه من تحقق الحياة الطيبة في الأرض والفوز بنعيم الخلد وجنة الأبد في الآخرة، ولما يدفعه عن الإنسان من ضنك المعيشة في الأرض وعذاب الأبد في الآخرة .

★ قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [ النحل: ٩٧ ] .

★ وقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [ طه: ١٢٣- ١٢٦ ] .

# رابعا: الطريق إ لى الإيمان

**يتهم الكثير من الملاحدة واللادينين أهل الإيمان بأنهم مغيبون وواهمون، لأنهم يؤمنون بالغيب، ويعتقدون فيما لا تدركه الحواس، ويزعمون أن الإيمان بالله خرافة لا يقبلها علم ولا يسيغها منطق، لأنه لا يقع في إطار المدركات عن طريق الحواس، حتى قال بعض كبرائهم من رواد الفضاء: لقد فتشنا عن الله في الفضاء فلم نجده !!**

**وقد اتبع هؤلاء الملاحدة في هذه المكابرة سنن من كان قبلهم من خصوم الرسل وأعداء الإيمان ممن جعلوا رؤية الله جهرة أو الاستماع المباشر لكلماته شرطًا للإيمان.**

**ـ فقد حدثنا القرآن الكريم عمن جعلوا رؤية الله شرطا للإيمان فقال تعالى عن فرعون:**

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾[ غافر: ٣٦- ٣٧ ] .

**وحدثنا عن بني إسرائيل فقال تعالى:** ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ [ البقرة: ٥٥ ] ، **وقال تعالى:** ﴿ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء: ١٥٣] .

**وكما حدثنا القرآن الكريم عمن جعلوا من رؤية الله شرطاً للإيمان، حدثنا عن الذين جعلوا من سماعهم المباشر من الله تعالى شرطاً للإيمان فقال تعالى:** ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [ البقرة: ١١٨] ، **وفي قوله تعالى:** ﴿ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ **إشارة إلى أن هذه المكابرة هي منطق الكافرين قديماً وحديثاً، وفي تذييل الآية بقوله تعالى:** ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ **إشارة إلى أن الطريق إلى الإيمان بالله هو التدبر في آياته التي تدل عليه .**

هذا وإن شبهة هؤلاء أوهى من بيوت العنكبوت لتعارضها مع الواقع المادي المستيقن الذي لا يملكون له دفعاً، فإنهم يؤمنون بوجود العقول المفكرة ولم يروها، ويؤمنون بوجود الجاذبية الأرضية ولم يروها، ويؤمنون بوجود أمواج الإذاعة ولم يروها، وإنما آمنوا بذلك كله لما يرون من آثاره، فقد آمنوا بالجاذبية لما يرون من آثارها في جذب الأشياء إلى الأرض، وآمنوا بالعقول لما يرونه من آثارها التي تظهر على سلوك العقلاء، وآمنوا بالهواء لما يرونه من آثاره في تحريك الأشياء، وآمنوا بأمواج الأثير لما يرون من آثارها التي ظهرت أصواتاً في جهاز المذياع ... وهكذا.

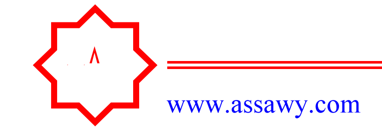
ولو تخلى هؤلاء عن صلفهم وعنادهم لعلموا أن أبصارهم التي لا تستطيع أن ترى الهواء الذي يلامسها والتي لا قبل لها بالنظر إلى الشمس لا قبل لها بالنظر إلى الله جل وعلا في هذه الحياة الدنيا، ولقد طلب موسى - عليه السلام - وهو من أولي العزم من الرسل - رؤية ربه وهو في مقام العبودية والتذلل فلم يقو على ذلك، فأنى لهؤلاء المخذولين بذلك وهم في مقام العناد والمكابرة ؟!

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [ الأعراف: ١٤٣ ] .

ولو تجلى الله لعباده في هذه الدنيا لأسرهم ذلك التجلي وظلت أعناقهم له خاضعين، وبطلت حكمة التكليف؛ لأن الإيمان عندئذ سيكون إجبارياً لا قبل لأحد بدفعه .

ولو تخلوا أيضاً عن صلفهم وعنادهم لآمنوا بربهم عن طريق رسله الصادقين الذين عرَّفوا به ودعوا إليه وقدَّموا على ذلك من البينات والمعجزات ما تقوم بمثله الحجة؛ كما يؤمنون بكثير من الأشياء التي لم يروها عن طريق إخبار من يثقون به من الأطباء والخبراء وغيرهم.

وكما وجد من الكفار من اشترط رؤية الله جهرة أو سماع كلامه مباشرة للإيمان به فقد وجد منهم من اشترط لإيمانه أن يستجيب الله لمقترحاته، كما يقول أحدهم: إذا أراد الله أن أؤمن به فعليه أن يفعل كذا وكذا، وهذا شبيه بقول كفار قريش فيما يحكيه عنهم القرآن الكريم:



﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٢] .

**ولو جعل الله الطريق إلى الإيمان هو الاستجابة لمقترحات البشر لوجد من يشترط لإيمانه أن يجعل الله الليل نهاراً أو الشمس قمراً، أو الأرض سماءً أو الرجال نساء !! وتجد غيره يشترط نقيض ذلك، وتجد ثالثاً يشترط قتل فلان، أو إهلاك هذه المنطقة، وتجد آخر بعكسه فيختل نظام الكون كله، وصدق الله العظيم:**

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١] .

**إذاً.. فالطريق إلى الإيمان بالله جل وعلا هو التدبر في آياته، وهي تقود كل منصف إلى الإيمان بالله جل وعلا، وتسكب في قلبه برد اليقين بربوبية الله وألوهيته على الكون كله، وانتقال الذهن منها إلى مدلولها بيّن واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها، وهو أمر من البداهة بحيث يستوي في إدراكه الناس قاطبة.**

# خامسا: ثمرات الإيمان

لقد وعد الله عباده المؤمنين بباقة من الوعود الطيبة في الدنيا:كالحياة الطيبة والهداية والعزة والتمكين والنجاة، وولايته لهم ودفاعه عنهم ونصرهم على أعدائهم وعدم تسليط الكافرين عليهم، وهي وعود لا تزال مبذولة لكل من بقي على عهد الله وميثاقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإني لأدعوكم - أعزائي الدارسين- إلى تأمل هذه المعاني من خلال هذه الآيات:

★ لقد وعد الله عباده بالحياة الطيبة فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [ النحل: ٩٧] .

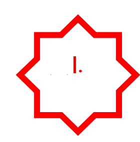
★ ووعدهم بالهداية فقال: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [ الحج: ٥٤ ] .

★ ووعدهم بالعزة والتمكين فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ المنافقون: ٨ ] ،

وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [ النور: ٥٥ ] .

★ ووعدهم بنصرهم والدفاع عنهم وألا يجعل للكافرين سبيلاً عليهم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [ الحج: ٣٨] ، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الروم: ٤٧ ] ، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ يونس: ١٠٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [ النساء: ١٤١] .

هذا بعض ما وعد به عباده المؤمنين في الدنيا، أما ما وعدوا به في الآخرة فحسبهم قول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩-١٠] ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [ الكهف: ١٠٧-١٠٨] .



وإذا كان واقع المسلمين في هذه الأيام لم تتحقق فيه هذه الوعود فإن مرد ذلك إلى ما أصاب إيمانهم من الضعف، وما شاب اعتقاد كثير منهم من الخلل، وإن استمرار هذا الضعف ينذر بكارثة مروعة ! وقد يخسر أصحابه ما وعد به المؤمنون في الآخرة كما خسروا ما وعدوا به في الدنيا !

ومن هنا كانت أهمية دراسة هذه المادة، والتحقق بها علماً وعملاً واستفاضة البلاغ بها بين الناس قاطبة، فإن هذا هو أول الطريق لاستعادة الهوية، والخروج من شعاب التيه التي منيت بها الأمة تحت خيمة التغريب والعلمانية.

**هذا وإن الإيمان بالله تعالى يتضمن أربعة أمور:**

- الإيمان بوجوده تعالى.
- الإيمان بربوبيته.
- الإيمان بألوهيته.
- الإيمان بأسمائه وصفاته.

وسوف نتناول هذه الأمور تباعاً في الوحدات الآتية .

# خلاصة الوحدة الأولى

- الإيمان بالله هو الفطرة : فقد فطر الله عباده على الإيمان به، وأخذ بذلك عليهم الميثاق وهم في ظهر أبيهم آدم ، ثم أرسل إليهم الرسل بعد ذلك مبشرين ومنذرين ليذكروهم بهذا الميثاق الأول.

- الإلحاد غاشية طارئة خرج بها أصحابها عن أصل الخلقة ومقتضى الفطرة ، حتى قال بعض المفكرين : إنه إلحاد بطن وفرج، وليس إلحاد عقل وفكر !

- علم الإيمان هو أشرف العلوم على الإطلاق لتعلقه بمعرفة الله تعالى ، وهو أهم العلوم على الإطلاق لما يترتب عليه من تحقق الحياة الطيبة في الأرض والفوز بنعيم الخلد في الآخرة .

- الطريق إلى الإيمان بالله هو التدبر في آياته التي تدل عليه .

- من ثمرات الإيمان الحياة الطيبة والهداية والعزة والتمكين والنجاة ، وولاية الله لأصحابه ودفاعه عنهم ونصرهم على أعدائهم وعدم تسليط الكافرين عليهم، وعدم تحقق ذلك في واقع المنتسبين إلى الإسلام في هذه الأيام مرده إلى ضعف الإيمان، ولا سبيل إلى تحقيق هذه الوعود إلا بالعودة إلى الإيمان علمًا وعملاً، تصديقًا وانقيادًا.

# الوحدة الثانية

## أولا: هل يوصف الله بالوجود

قبل أن نشرع في الحديث عن أدلة وجود الله عز وجل نبادر بالإجابة على شبهة قد تعرض حول وصف الله بالوجود، أو بأنه موجود، وما قد يجره ذلك من القول بأن له موجد باعتبار أن كل موجود لا بد له من موجد، فهل يليق وصف الله بذلك؟! فنقول: الوجود صفة لله جل وعلا بإجماع المسلمين، بل هو صفة لله عند جميع العقلاء حتى المشركين، لم ينازع في ذلك إلا الدهريون والملاحدة، ولا يلزم من إثبات صفة الوجود لله جل وعلا أن يكون له موجد؛ لأن الوجود نوعان:

ـ الأول: وجود ذاتي، وهو ما كان وجوده ثابتا له في نفسه وليس مكسوبًا له من غيره، وهذا هو وجود الله عز وجل، فإن وجوده لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم، كما قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد:٢] .

ـ الثاني: وجود حادث، وهو ما كان حادثا بعد عدم — مثل جميع المخلوقات، فهذا الذي لابد له من موجد يوجده وخالق يحدثه، وهو الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [ الزمر: ٦٢ ] .

وعلى هذا فلا حرج في وصف الله تعالى بأنه موجود، ولا حرج في الإخبار عنه بذلك في الكلام فيقال: الله موجود، باعتبار أن الوجود صفة من صفاته وليس اسماً من أسمائه، والله أعلم.

وبعد، فإن الأدلة على وجود الله بعدد مخلوقات الله ! فكل ما خلق الله في السماوات والأرض يحمل بذاته أبلغ الأدلة على وجود الله عز وجل، بدءًا من أصغر ذرة في الأرض إلى أكبر مجرة في السماء!

ولقد ظل الإقرار بالربوبية مركوزًا في فطرة الإنسان عبر التاريخ البشري، ولهذا لم يكن رسل الله بحاجة إلى أن يخوضوا معركة كبرى لإثباته لفرط وضوحه وبداهته، بل كانت تكفي الإشارة إليه والتنبيه عليه، ثم الانطلاق منه بعد ذلك لتقرير بقية حقائق التوحيد والإيمان.

ونحن لا ننكر أن شذاذًا في تاريخ الأمم تنكروا لهذه الحقيقة وجحدوا بها، ولكنهم كانوا من الندرة والقلة، بحيث لا يشكلون ظاهرة عامة تتنزّل من أجلها الكتب وتبعث من أجلها الرسل، ومن أجل ذلك خلت كتب السلف الصالح من التناول المفصل لهذه القضية وإفرادها بمؤلفات خاصة، فلم يكن للملاحدة من الوجود الفكري أو السياسي ما يحفز إلى التصدي والمواجهة.

ولكن شذاذ الأمس قد أصبحوا في هذا الزمن وإلى وقت قريب أمة قائمة يشيدون على الإلحاد الدول، ويبنون على أساسه الحضارات، بل ويقيمون له المعاهد العلمية التي تعمل على تأصيل الإلحاد وإعطائه صبغة العلم والتقدمية! وإن كان نجمهم قد أخذ مؤخرًا في الأفول بعد أن زالت إمبراطوريتهم ومزقوا في الأرض كل ممزق ! ومن هنا مست الحاجة إلى أن يهتم المسلمون بإبراز الآيات الدالة على وجوده جل وعلا، والتي تبرهن على كثير من أسمائه وصفاته، دحضًا لشبه المبطلين، وقيامًا بحجة الله على العالمين، وحماية للأمة من أن يصيبها رذاذ هذا الإلحاد الفاجر، واستجابة لأمر الله لهم بالتدبر في ملكوت السماوات والأرض.

وسوف نتناول في هذه الوحدة دلالة الخلق على الحق من خلال العناصر الآتية:

- دلالة الفطرة.
- دلالة الآيات الكونية.
- دلالة الحس.
- دلالة إجماع الأمم.
- دلالة العقل.

# ثانياً :بعض الأدلة على ربوبية الله تعالى

## أ- دلالة الفطرة:

ويقصد بها ذلك الشعور الغامر الذي يملأ على الإنسان أقطار نفسه، إقرارًا بخالقه، وتألهًا له، والتجاءً إليه، لا يستطيع دفعه ولا يملك رده، فهو أشد رسوخًا في النفس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين. ومبدأ العلم الطبيعي كقولنا: إن الجسم لا يكون في مكانين. وغير ذلك من الحقائق والمسلمات.

قال تعالى: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠] . وهو استفهام تقريري، يتضمن تقرير الأمم على ما هم مقرون به من أنه ليس في الله شك.

وإن هذه المعرفة الضرورية لمحض هبة من الله عز وجل لعباده، فهي ليست من صنع حجة أو قياس، ولم تنشأ عن نظر أو تفكر، بل هي أسبق من هذا كله، وأبلغ من هذا كله ! لأنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، والحنيفية التي خلق عليها عباده كلهم، وهي التي كان يشير إليها كثير من السلف بقولهم: وإنما تزداد بذلك.

فعن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فكان مما جاء في خطبته(( إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل ما نحلته عبادي حلال، و إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا))

[ رواه مسلم ] .

وقال ﷺ : (( كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ))

[ متفق عليه ].

وإن هذا الإقرار الفطري بالخالق الحكيم ليولد مع الإنسان منذ البداية، ويظل يصحبه في مختلف أطوار حياته، ما لم تفسد فطرته وتنتكس بفعل العوارض والأهواء، فالكفر طارئ عارض، فإذا تاب منه صاحبه فقد رجع إلى الفطرة التي فطر عليها، وإلى الأصل الذي شذ عنه وخرج عليه.

وهذه الفطرة عند كثير من المفسرين هي الميثاق الذي أخذه الله بربوبيته على بني آدم قبل أن يوجدوا، وجعل منه حجة قائمة عليهم لا يسعهم جهلها أو التنكر لها اعتذارًا بتقليد الآباء والأجداد. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢- ١٧٣] .

ولقد طابت نفوس العارفين بهذه المعرفة الضرورية الفطرية، وقرت بها عيونهم، وقنعوا بها عن أقيسة المناطقة والمتكلمين، حتى قيل لأحدهم يومًا: إن فلانًا من علماء الكلام قد أقام على وجود الله ألف دليل. فقال: لأن في نفسه ألف شبهة !

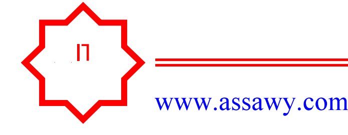
وقد قيل لابن عباس: بم عرفت ربك ؟ فقال: من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس، خارجًا عن المنهاج، ظاعنًا في الاعوجاج، عرفته بما عرَّف به نفسه، ووصفته بما وصف به نفسه !

فأخبر أن معرفة القلب حصلت بتعريف الله وهو نور الإيمان، وأن وصف اللسان حصل بكلام الله وهو نور القرآن.

وقد يحجب هذا الشعور الفطري إقبال الرخاء والعافية، أو سيطرة الذهول والغفلة، ولكن سرعان ما يتهاوى ذلك كله تحت مطارق الشدائد، فينقلب الملحد الكفور ضارعًا لربه منيبًا إليه !

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢] .

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [ يونس: ٢٢ ] .



وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [ لقمان: ٣٢ ] .

وقد سأل رجل الإمام جعفر الصادق عن الله، فقال له: ألم تركب البحر؟ قال: بلى. قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة ؟ قال: نعم. قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة ؟ قال: نعم. قال: فهل خطر ببالك وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء ؟ قال: نعم. قال جعفر: فذلك هو الله.

وإن العتاة الغلاظ من أكابر الملاحدة والكافرين لم يستطيعوا دفع هذه الحقيقة عن أنفسهم، ولا جحدها بأفئدتهم، وإن جحدتها ألسنتهم ظلمًا وعلوًا، كما قال تعالى:

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤ ] .

بل إن فرعون - على ما كان عليه من عتو وطغيان - لم يستطع أن يدفع عن نفسه هذه المعرفة الضرورية، وكان أول من يعرف عن نفسه كذبها في دعوى الألوهية، ويتجلى ذلك من مُحاجَّته لموسى، ومن قول موسى له فيما يحكيه عنه القرآن الكريم:

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

بل ومن قوله حين أدركه الغرق حيث لا ينفعه إيمان، ولا تقبل له توبة: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠] .

## ب- دلالة الآيات الكونية:

إن في خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من دابة لآيات بينات على وجود الله عز وجل تحرق كل شبهة، وتخرس كل كفور، وترغم كل مكابر ومعاند لما تتضمنه من الشهادة لله بالربوبية والألوهية على الخلق أجمعين، فهي بعددها أدلة على ثبوت خالقها جل وعلا.

وإن المتأمل في هذا الكون بما فيه ومن فيه يجد فيه أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى الإيمان بالله، وهي أدلة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية، وقد أشارت إليها مجتمعة سورة الأعلى في قول الله عز وجل:

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [ الأعلى: ١-٣ ].

وأشارت إلى بعضها آيات كثيرة في أماكن شتى من القرآن الكريم كقوله تعالى على لسان كليمه موسى وهو في مقام التعريف بربه: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] ، وقوله تعالى على لسان خليله إبراهيم: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨] ، وسوف نتناول كل دليل من هذه الأدلة بكلمة مناسبة فيما يلي:

## دليل الخلق:

دليل الخلق من أبين الأدلة وأظهرها على وجود الرب جل وعلا، وقد صاغه القرآن الكريم أوجز صياغة وأبلغها في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦] .

وقد روى البخاري في صحيحه عن محمد بن جبير عن مطعم عن أبيه قال: « سمعت رسول الله - ﷺ- قام يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ كاد قلبي أن يطير »، وإنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية كما يقول الخطابي لحسن تلقيه معنى الآية، ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة فاستدركها بلطيف طبعه، واستشف معناها بزكي فهمه!

والخطاب القرآني في هاتين الآيتين يواجه الملحدين والمنكرين بهذه الحجة التي لا تملك العقول لها دفعاً، يقول لهم: إنكم لا تمارون في حقيقة خلقكم ولا في حقيقة خلق السماوات والأرض، كما لا تمارون في أن المخلوق لابد له من سبب لوجوده، وإذا تقرر ذلك فلا مناص لكم من الإقرار بوجود الخالق جل في علاه.

ولقد صاغ لهم هذه الحجة في هذه الأسئلة الإنكارية: هل خلقوا من غير شيء فوجدوا بلا خالق ؟ وذلك في الفساد ظاهر لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الأمر فلابد له من خالق، فإذا أنكروا الإله الخالق، ولم يجز أن يوجدوا بغير خالق أفهم الخالقون لأنفسهم ؟ وذلك في الفساد أظهر، لأن ما لا وجود له كيف يخلق ؟ وكيف يجوز أن يكون موصوفاً بالقدرة ؟ وإذا بطل الوجهان معاً قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به.

ولقد أدرك هذه الحقيقة البدوي البسيط الذي عاش يرعى إبله في مجاهل الصحراء فكان يقول: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فماذا تدل عليه سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ؟! ألا تدل على أنها صنعت بتدبير العزيز العليم ؟!

كما أقر بها قادة العلوم التجريبية وأساطينها في واقعنا المُعاصر، وعبروا عنها بقانون السببية، وخلاصته أنه ليس لشيء من المُمكنات أن يحدث بنفسه من غير شيء، ولا أن يستقل بإحداث شيء؛ لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه.

ولم يزل علماءُ المسلمين يواجهون عُتاة المُلحدين بهذا الدليل البدهي فيُبهتون ويَذعنون، فلقد روي أن أبا حنيفة - رحمه الله — عرض له بعض الزنادقة المنكرين للخالق فقال لهم: ما تقولون في رجل يقول لكم: رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة من الأثقال، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مُختلفة، وهي من بينها تجري مستوية، ليس لها ملاّح يُجريها ولا مُتعهد يَدفعها، هل يجوز في العقل؟! قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل! فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله! إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مُجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها، وتغير أعمالها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها، من غير صانع ولا حافظ ؟! فبكوا جميعاً وقالوا: صدقت، وتابوا.

وكلما اكتشف العلم جديداً من سنن الخلق كلما قاد هذا العلم المنصفين من رواده إلى الإقرار بوجود الله، وقد يسوق كثيرًا منهم إلى الانخلاع من الكفر والإجابة إلى الإيمان.

ولقد دعا القرآن الكريم إلى السير في الأرض والتدبر في الخلق ليستيقن المرتابون ويزداد الذين آمنوا إيماناً، فقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [ العنكبوت: ٢٠ ] ، وقال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [ الذاريات: ٢٠ - ٢١ ].

**ولقد وعد الله عز وجل أن يري الناس من آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما تقوم به عليهم الحجة، وما يتبينون معه أن هذا الدين حق، فقال تعالى:** ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [ فصلت: ٥٣ ] .

وحسبنا في هذه الدراسة أن نلقي الضوء على آية أو أكثر من هذه الآيات المبثوثة في الأنفس وفي الآفاق، ثم نُحيل فيما وراء ذلك إلى كتاب الكون المفتوح والذي يتضمن من الأدلة على وجود الله بعدد ما فيه من مخلوقات الله..

فيا عجبًا كيف يعصي الإلـه وكيف يجحده الجاحد؟!

وفـي كل شيء لـه آيـــة تدل على أنه الواحـد

## الإعجاز في خلق الخلية:

إن مُعظم الحيوانات والنباتات تتكون من عدد هائل من الخلايا كما يتكون المبنى من مجموعة من الحجارة المرصوصة، وهذه الخلايا سواء في جسم الإنسان أو في أجسام غيره من الكائنات الحية دائمة الانقسام وذلك لنمو الجسم أو تعويض ما يُفقد أو يموت من الخلايا.

ومن الإعجاز المدهش في هذا المقام أن جميع الخلايا تنقسم إلا نوعاً واحدًا وهو الخلايا العصبية التي يتكون منها المخ والجهاز العصبي، فإن عدد خلايا المخ عند ولادة الإنسان أو الحيوان لا تزيد عليه خلية واحدة حتى الوفاة؛ لأنها لو انقسمت فلن يُمكنها الاحتفاظ بشخصية الإنسان، وسوف تتلاشى معالم الذاكرة في خلال ساعات قلائل، فمن ذا الذي جعل للخلايا العصبية وحدها دون غيرها من بقية الخلايا هذا الثبات من الميلاد إلى الوفاة ؟! من يا أولي الألباب ؟!

ويوجد في كل خلية من هذه الخلايا عدد من الصبغيات، وهي أجسام دقيقة تحمل العوامل الوراثية، وعدد هذه الصبغيات ثابت في خلايا كل نوع من أنواع الحيوان والنبات، فعددها في القطط يختلف عن عددها في الكلاب، وعددها في الكلاب يختلف عن عددها في الفيلة والأرانب، وهكذا.

وفي داخل الخلية الإنسانية يوجد ستة وأربعون من هذه الصبغيات، وعندما تنقسم هذه الخلية داخل الجسم البشري فإن كل خلية تحتوي على نفس العدد إذ لو اختل هذا العدد لما أصبح الإنسان إنساناً.

ولكن هذه القاعدة تتخلف في الخلايا التناسلية أي الحيوان المنوي للذكر والبييضة لدى الأنثى، إذ أن عدد الصبغيات الموجودة في الخلية التناسلية لدى كل من الذكر أو الأنثى يبلغ ثلاثة وعشرين

فحسب، أي نصف الأعداد الموجودة في بقية الخلايا. لماذا؟ لأن الخلية الذكرية لابد أن تندمج مع الخلية الأنثوية لتكوين النطفة الأمشاج - الخلية الأولى في جسم الجنين - فإذا تم المزج بينهما رجع عدد الخلية الجديدة إلى العدد الأصلي وهو ستة وأربعون صبغياً نصفها من الحيوان المنوي ونصفها من البييضة !!

ترى من ذا الذي اختزل عدد هذه الصبغيات إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية بالذات لكي تندمج فيعود العدد الأصلي في الخلية الأولى وفقاً للقاعدة العامة في سائر الخلايا؟! ألا يكفي هذا دليلاً على وجود إله خالق عليم أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟! هل يمكن أن يقع هذا صدفة وهو الذي لم يتخلف مرة واحدة؟!

## دليل التسوية:

وتسوية الشيء إتقانه وإحسان خلقه وإكمال صنعته بحيث يكون مُهيئاً لأداء وظيفته، ويكون مستوياً مُعتدلاً متناسب الأجزاء ليس بينها تفاوت يُخل بالمقصود.

ويُعبر القرآن الكريم عن التسوية بعبارات مُختلفة الألفاظ، وإن كانت مُتقاربة الدلالة؛ كالإتقان والإحسان ونفي التفاوت و إعطاء الخلق ونحوه.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧] .

وقال تعالى: ﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ ﴾ [النمل: ٨٨] .

وقال تعالى: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] ، أي أعطاه من الخلق ما يصلح لما خلق له.

وقال تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣] .

وإذا كان الخلق يدل على وجود الله جل وعلا فإن دلالة التسوية على وجوده أظهر وأبين، إذ التسوية أخص من الخلق إذ قد يُخلق الشيء بغير تسوية، وهذه التسوية ظاهرة في الكائنات كلها، ولكنها في الكائنات الحية أظهر - وفي الإنسان على وجه الخصوص - أظهر وأبين.

ـ تأمل على سبيل المثال في خلق الأجنة، وانظر كيف خلق الله لها عيوناً وهي لم تزل في ظلمات الأرحام، وخلق لأجنة الطير أجنحة وهي لا تزال داخل البيض، والأجنة لا تستخدم العيون ولا الأجنحة

في هذه المرحلة، ولكن الخالق العليم يُهيؤها بهذه العيون وبهذه الأجنحة لحياتها المُقبلة، فهو يعلم أن الأجنة ستتجاوز ظلمة الأرحام إلى عالم النور حيث تمس الحاجة إلى العيون، وستخرج من البيض إلى هذا الكون الفسيح حيث الحاجة ماسة إلى الأجنحة، فأعطاها خلقها وزودها بما تستقيم به حياتها.

ـ انظر إلى الأنف كيف أحكم خلقه ليتناسب مع وظيفته، فالهواء يدخل من ثقبين بين العينين لكن العليم الحكيم غطى هذين الثقبين بالأنف، وجعل النصف الأعلى من الأنف عظمًا، حتى لا تضغط الريحُ على هذا الغطاء، فتسد الثقبين، فيمتنع التنفس، كما يُشارك عظم الأنف في حماية العينين، وفتح الأنفَ باستمرار لِدخول الهواء، إذ لو كان الأنف كله من عظام لما تمكنا من إخراج المُخاط، وجعل الخَالقُ جدار الأنف مائلاً لكي يصطدم الهواءُ بالجدار المائل، فيَردَه إلى الحواجز الداخلية، ليصطدم بها، فيلامسَ الهواءُ الداخل المخاطَ المُبطِّن لجدار الأنف، فتلتصق به الجراثيم والأتربة، فيتصفي الهواء قبل دخوله... وفي الشتاء تتكاثر الدماء في الأنف، فنراه مُحمراً، وذلك لتدفئة الهواء الداخل، وفي الصيف يقوم الأنف بترطيب وتبريد الهواء الجاف، أو الحار.

## ألا يشهد ذلك كله أنه من صنع العليم الحكيم ؟!

ـ تأمل في تفاوت قوة عضلات الجسد ستجد أن أقوي عضلات في جسم الإنسان والحيوانات الثديية هي عضلات الرحم لتتمكن من دفع الجنين، ولو لم تكن بهذه القوة لما خرج أول جنين إلى الوجود، وتلي عضلات الرحم في القوة عضلات القلب إذ لابد لها من القوة لتصمد للعمل ليلاً ونهاراً لدفع الدم إلى الأوعية الدموية.. فمن ذا الذي زود هذه العضلات بهذه القوة لتتمكن من أداء هذه الوظيفة.

ـ تأمل في التركيب الأساسي للعين وهو مدهش وشديد التعقيد، ولسوف تدرك أن آلة التصوير التلفزيونية ما هي إلا مُحاكاة بدائية لعملية الإبصار التي تتم عن طريق العين!

تأمل أولاً كيف حُميت العين من الخارج بسياج من عظام الحاجب والأنف والوجنة، ثم ارجع البصر كرتين في كيفية تهيئتها لأداء وظيفتها لتقف على العجب العجاب من صنع الله عز وجل !

إن حدقة العين تتسع تلقائياً في الضوء الخافت وتضيق في الضوء الساطع لحاجتها إلى كمية كبيرة من الضوء في عملية الإبصار في الحالة الأولى وعدم حاجتها إلى ذلك في الحالة الثانية.

وإن الشبكية تتكون من تسع طبقات مختلفة لا يزيد مجموعها عن سمك ورقة رقيقة، وإن الطبقة التي في أقصى قاع العين تتكون من الملايين من الأعواد والمخروطات منتظمة في تناسب مُحكم يمكنها من أن تميز الألوان، ويتولى العصب البصري نقل هذا الإحساس إلى مركز مُعين في المخ يُترجم الإحساس إلى صورة مرئية تبصرها العين بوضوح، وإن كل هذه التنظيمات العجيبة لابد أن تعمل في وقت واحد وإلا لاستحالت الرؤية.

- ومن الطرائف والعجائب أن البومة تستطيع رؤية الأشعة تحت الحمراء وهي أشعة حرارية لا يراها الإنسان، فتتمكن بها على سبيل المثال من أن تبصر الفأر في الظلام الدامس عن طريق هذه الأشعة التي تبتعث من جسده الدافئ !

- ومن العجائب كذلك قدرة النحل على رؤية الأشعة فوق البنفسجية، وهي الأشعة الوحيدة القادرة على اختراق السحب؛ لأن النحل قد يعيش في مناطق يكسوها السحاب مُعظم أوقات السنة، ورؤية الشمس ضرورية لمعرفة الحقول التي بها الغذاء، وبهذا يتمكن النحل من رؤية الشمس من خلال السحب فلا تموت جوعاً عندما تختفي الشمس خلف الغمام.

- بل تمثل قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [ الغاشية: ١٧ ] .

**وتأمل في بديع خلق الإبل وكيف سواها الله عز وجل وهيأها لأداء الوظيفة التي خلقها لها، لقد أعطى الله الجمل الصورة الخلقية التي تلائم عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء، فلهذا خَلق برقبة طويلة تعلي رأسه وتنأى بعينيه عن غبار الرمال، كما مُنح شفة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادي دون أن تؤذيه، وأعطي سناماً يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يوماً في الصحاري القاحلة، ولم تنته رجله بحافر يغوص في الرمال كحوافر الخيل والبغال والحمير؛ بل انتهت بخف يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها، ولهذا سموه سفينة الصحراء.**

- تأمل في قرني استشعار ذكر البعوض تجد به شعيرات أطول من تلك التي في قرني استشعار أنثاه، إن الأمر ليس لِمجرد الزينة ولكنها أشبه ما تكون بمحطة استقبال إذاعي تستقبل الأصوات الخاصة التي تحدثها أنثى البعوض وهي بعيدة عنه بعداً شاسعاً، وهي أشبه بموجات الإذاعة، فيُحرك الذكر قرنيّ استشعاره في شتى الاتجاهات ليلتقط هذه الأصوات على الرغم من وجود أصوات أخرى

عديدة يموج بها الجو، وعن طريق زاوية قرن استشعاره يدرك الذكر غريزياً مكان الأنثى فيطير إليها ليتم التزاوج بينهما، ويتمكن البعوض من البقاء جيلاً بعد جيل.

ألا تدل هذه المظاهر - والكون حافل بها - على وجود الله جل وعلا وعلى بديع علمه وإرادته وقدرته وحكمته ؟!

## دليل التقدير:

التقدير: هو خلق كل شيء بمقدار وميزان وترتيب وحساب بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه.

فإذا كانت التسوية إعطاء كل شيء من الخلق والتصوير ما يُؤدي به وظيفته على الوجه اللائق به، فإن التقدير أن يكون بالقدر الذي ينفع في نفسه ولا يضر غيره ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى، وذلك يتم إذا ما وضع في مكانه الملائم وزمانه المناسب، وبالكم الذي يصلح ولا يفسد، وعلى الكيفية التي يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه وينتظم بها سير الوجود.

وهذا التقدير ظاهرة عامة في كل شيء كما نبه القرآن على هذه الحقيقة إذ قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢] ، ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق:٣] ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر:٢١] .

ولنتأمل معًا - عزيزي الدارس - بعض الظواهر الكونية التي تتجلى فيها آية التقدير والتي لا يملك المنصفون معها إلا أن يخروا لله سُجداً وبُكياً.

- إن شمسنا هذه لو أعطت نصف إشعاعها الحالي، لتجمدت الحياة والأحياء، ولو أنها زادت بمقدار النصف، لكنا رماداً منذ زمن بعيد.

- ولو كان قمرنا يبعد عنا ٢٠،٠٠٠ ميلاً بدلاً من بعده الحالي-ولم لا وقمر المريخ يبعد عنه ٦٠،٠٠٠ ميلاً- لكان المد يبلغ من القوة بحيث إن جميع الأرض تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح الجبال من مواقعها !

ـ ولو كان الأكسجين بنسبة ٥٠٪  أو أكثر من الهواء بدلاً من ٢١٪ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال، لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة كلها.

ـ ولو كانت مياه المُحيطات حلوة لتعفنت وتعذرت الحياة على الأرض، حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد.

ـ ولو كان محور الأرض معتدلاً بدل هذا الميل الحالي الذي مقداره ٢٣درجة مع سكون الأرض، لتجمعت قطرات المياه المتبخرة من المحيطات والبحار ونزلت في مكانين محدودين في الشمال والجنوب، ولظل الصيف دائماً والشتاء إلى الأبد، ولهلك الناس وجميع الأحياء.

ـ ولو كانت الأرض كعطارد لا يدير إلا وجهًا واحدًا منه نحو الشمس، ولا يدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس، أو بتعبير آخر لو كان قسم من الأرض ليلاً دائماً والآخر نهاراً دائماً لما عاش أحد حيث الليل الدائم والنهار الدائم ولما كانت حياة.

ـ بل لولا الموت ماذا يحدث؟ قالوا لو أن ذبابتين توالدتا هما وأولادهما دون موت فإنه بعد خمس سنوات تتشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها ٥سم. وهذا جنس واحد من المخلوقات فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتوالد ولا تموت ؟!

ومن الطريف أنه منذ سنوات عديدة زُرع نوع من الصبار في أستراليا كسياج وقائي، ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة إنجلترا، وزاحم أهل القرى وأتلف مزارعهم، ولم يجد الأهالي وسيلة لصده عن الانتشار، وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع الصامت، يتقدم في سبيله دون عائق.

وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار ولا تتغذى بغيره وهي سريعة الانتشار وليس لها عدو يعرفها في أستراليا، وما لبثت هذه الحشرة أن تغلبت على الصبار ثم تراجعت ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية تكفي لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد.

ـ ومن المعلوم أن كل الكائنات الحية تمتص الأكسجين وتلفظ ثاني أكسيد الكربون، أما النبات فهو على العكس يستعمل ثاني أكسيد الكربون ويلفظ الأكسجين، فهناك تبادل مشترك بين الإنسان والحيوان من جانب وبين جميع النباتات والغابات من جانب آخر، وبدونه تنتهي حياتنا في دقائق معدودة، ترى من ذا الذي قدر هذا التناسق وأقام هذا التوازن، ووضع هذا النظام المُحكم ؟! ألا يدل ذلك على وجود العليم الحكيم الذي يُدبر الأمر كله ؟ بلى ونحن على ذلك من الشاهدين.

## دليل الهداية:

الهداية من أظهر الأدلة الكونية على وجود الله جل وعلا، ويقصد بها في هذا المقام أن كل خلق من مخلوقات الله قد ألهم غاية وجوده، وهدي إلى ما خلق من أجله، فهي الإلهام الفطري أو الغريزي الذي تتوجه به المخلوقات قاطبة إلى أداء دورها وتحقيق وظيفتها في هذه الحياة.

وهذه الهداية عامة لا تتعلق بالمكلفين فحسب، وليست مقصورة على الكائنات التي تتحرك بالإرادة فحسب، ولكنها هداية مبثوثة في كل شيء في هذا الوجود لتحمل في طياتها أبلغ الأدلة على وجود الرب جل وعلا وبديع صنعه وتدبيره.

تأمل في أهداب الجفن الأعلى للعين ستجدها تنحني وتتجه إلى أعلى بخلاف أهداب الجفن الأسفل فإنها تنحني وتتجه إلى أسفل، ولو انعكس ذلك لتشوشت الرؤية.

تأمل في أسنان الفك الأسفل ستجدها تتجه إلى أعلى بينما تتجه أسنان الفك الأعلى إلى أسفل، وتأمل في الأنياب تنمو فوق الأنياب، والأسنان فوق الأسنان، والأضراس فوق الأضراس، فمن ذا الذي هدى كل شعرة في الجفون وكل سن في الأفواه بحيث تؤدي دورها الذي خلقت من أجله في سهولة ويسر ؟!

فإذا انتقلنا إلى آية الهداية في عالم الحيوان فإننا سنقف على العجب العجاب مما يذهل العقول والألباب، يتحدث ابن القيم في شفاء العليل عن هداية النمل فيقول: إن حشرة المن التي يطلق عليها أحيانًا قمل النبات التي نراها على أوراق بعض النباتات يرعاها النمل ليستفيد منها، ففي الربيع الباكر يرسل النمل الرسل لتجمع له بيض هذا المن فإذا جاءوا به وضعوه في مستعمراتهم حيث يضعون بيضهم ويهتمون ببيض هذه الحشرات كما يهتمون ببيضهم، فإذا فقس بيض المن وخرجت منه

الصغار أطعموها وأكرموها، وبعد فترة قصيرة يأخذ المن يدر سائلاً حلواً كالعسل كما تـدر البقـرة اللبن، ويتولى النمل حلب هذا المن للحصول على هذا السائل وكأنها أبقار.

وكما يعنى النمل بالرعي على هذا النحو يعنى كذلك بالزرع وفلاحة الأرض، فلقد لاحظ بعض العلماء في إحدى الغابات أن قطعة من الأرض تبلغ مساحتها خمسة أقدام طولاً في ثلاثة عرضًا قد نما بها أرز قصير يبلغ طوله ستة سنتيمترات، ويبدو للناظر أن أحدًا يعتني بها، فالطينة حول الجذور كانت مشققة والأعشاب الغريبة كانت مستأصلة، ولاحظ أن طوائف من النمل تتردد على هذه المنطقة، فعكف على ملاحظة هذه البقعة ثم لم يلبث أن عرف أن هذا النمل هو القائم بزراعة الأرز في تلك البقعة من الأرض، وأنه اتخذ من زراعتها مهنة له تشغل كل وقته، فبعضه كان ينسق الأرض ويحرثها، وبعضه كان يزيل الأعشاب الضارة، فإذا بدأ موسم الحصاد شوهد صف من شغالات النمل لا ينقطع متجهًا نحو العيدان فيتسلقها إلى أن يصل إلى حبوب الأرز، فتنتزع كل شغالة من النمل حبة من تلك الحبوب وتهبط بها سريعًا إلى الأرض ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض، وساق من تفاصيل ذلك ما تذهل له العقول !!

والهداية في عالم النبات لا تقل عنها في عالم الحيوان، فليس من قبيل المصادفة البحتة أن يتجه جذر النبات نحو الأرض ليمد النبات بالماء والمواد اللازمة لنموه، وأن يتجه الساق إلى أعلى نحو الهواء؛ ليتمكن عن طريق الأوراق من التنفس وتكوين المواد الغذائية عن طريق الطاقة المستمدة من الشمس، وحسبك أن كل نوع منه يمتص ما يناسبه من عناصر الأرض بنسب محدودة ومقادير معلومة رغم اتحاد التربة واختلاط العناصر فيها، فتجد اختلاف الطعوم والألوان والثمرات، بل ترى الشجرتين أو الشجرات متجاورة بل متلاصقة: التراب واحد والهواء واحد والماء واحد والضوء واحد ولا تخطئ شجرة واحدة منها يومًا فتأخذ ما ليس من مخصصاتها، وصدق الله العظيم:

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

ترى من ذا الذي هدى الإنسان والحيوان والنبات وسائر المخلوقات على هذا النحو البديع المذهل؟! أجيبوا يا أولي الألباب!

## جـ- دلالة الحس:

ودلالة الحس على وجود الله تعالى من وجهين:

**أولهما:** ما نشهده ونسمعه من إجابة الداعين وغوث المكروبين، وهو يدل دلالة قاطعة على وجوده تعالى، قال تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [ النمل: ٦١ ] .

وما زالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا إلى يومنا هذا لمن صدق اللجوء إلى الله تعالى وأتى بشرائط الإجابة.

بل إن إجابة الله جلا وعلا لدعوة المظلومين والمكروبين من جنس ربوبيته لهم، فهو لا يرد دعوة المظلوم وإن كانت من كافر، وكثيرًا ما يجيب دعاء المضطرين من المشركين ممن كانوا يخلصون له الدين في الشدة ويشركون به في الرخاء، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣ - ٦٤] .

وكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [ لقمان: ٣٢ ] .

★ **ثانيهما:** ما أيد الله به رسله من المعجزات، ودلالة المعجزة إحدى الطرق القرآنية في إثبات الربوبية، ذلك أن المعجزة كما تدل على صدق الرسل، فإنها تدل أيضًا على ربوبية المرسل وألوهيته وذلك لما يأتي:

**أولاً:** أن المعجزة تدل بنفسها على ثبوت الصانع كسائر الحوادث، بل هي أخص من ذلك لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة، ولهذا يُسبَّح الرب عندها ويُمجَّد ويُعظَّم ما لا يكون عند المعتاد، ويحصل بها في النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد، إذ هي آيات جديدة فتعطى حقها.

**ثانيًا:** أنه إذا تقررت بها النبوة والرسالة فقد تقررت بها الربوبية كذلك ؛ إذ لا يكون هناك نبي ولا رسول إلا وهناك مُرسِل، فالإقرار بالرسالة يتضمن الإقرار بالربوبية بلا نزاع.

**ثالثا:** أن النبوة إذا ثبتت بالمعجزة، فقد صارت أصلاً في وجوب قبول جميع ما دعا إليه النبي من حقائق الربوبية والألوهية وغيرها.

وقد جاء القرآن بهذه الطريقة في قصة فرعون، فإنه كان منكرًا للرب جل وعلا، فحاجَّه موسى في ذلك، ثم عرض عليه الحجة البينة التي جعلها دليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين، وفي أن له إلهًا غير فرعون، فاستدل بالمعجزة على كلا الأمرين: ربوبية الله جل وعلا، وكونه مرسلاً من عنده تعالى.

قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣- ٣٣] .

فقد أقام عليه الحجة أولاً بالآيات التي يستلزم العلمُ بها العلمَ بالخالق جل وعلا، فلما عاند وكابر رده إلى دلالة المعجزة التي هي أبلغ في الدلالة على المقصود؛ ليثبت بها كلا الأمرين: الربوبية والرسالة.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣- ١٤] .

فبيّن أن المعجزة تدل على الرسالة والوحدانية، فإذا أثبتت المعجزة إحداهما فقد أثبتت الأخرى.

## د – دلالة إجماع الأمم:

ومن الأدلة على وجود الخالق جل وعلا إثبات الأمم كلها له، وإجماعهم على ذلك، بحيث لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، اللهم إلا شذاذ وحثالات لا يعتد لمثلهم بخلاف، ولا يؤبه لمثلهم بقول.

وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات، فلم ينقل عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق المخلوقات، ولا مماثل له في جميع الصفات، فضلاً عن إنكار الربوبية بالكلية، ولهذا فإن ظاهرة الإلحاد لم تكن فيما مضي إلا شذوذًا تخلف به أصحابه عن مواكب العقلاء، وهووا به إلى دركات سحيقة من الضلالة والبهتان !

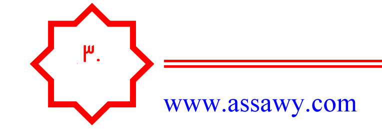
## هـ – دلالة العقل:

لقد دل القرآن الكريم على الأدلة العقلية التي بها يعرف الخالق وتوحيده وكثير من صفاته جل وعلا، ففي القرآن من بيان أصول الدين التي تعلم مقدماتها بالعقل الصريح ما لا يوجد مثله في كلام الناس، بل عامة ما يأتي به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتي القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها، قال تعالى:

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣ ] .

وقد أخطأ من ظن أن دلالة الكتاب والسنة على أصول الدين بمجرد الخبر أو بطريقة خطابية، بل فيهما من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية ما يقوض كل شبهة، ويذهب كل ريبة، ويبني اليقين في النفوس بعيدًا عن سفسطة الفلاسفة وتعقيدات المتكلمين !

قال الرازي: تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما وجدتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.



هذا.. وقد سبق أن الأدلة على وجود الله بعدد مخلوقات الله، وأن هذه الأدلة المشاهدة في المخلوقات تقوم على أسس ثلاثة شهد بها العقل، ودل عليها الكتاب والسنة، ولا يمكن لأحد أن يخالف فيها مهما كان دينه أو جنسه أو علمه.

فما هي هذه الأسس ؟ وكيف ترغم المكابر على الإقرار بوجود الله ؟ من الرواد الذين صاغوا هذا الدليل فضيلة الشيخ عبد المجيد الزنداني في كتبه حول الإيمان والتوحيد وفي مناظراته المثيرة مع الملاحدة واللادينيين.

### الأساس الأول: العدم لا يخلق شيئاً.

فالعدم لا يخلق شيئا، وهذه ضرورة عقلية وحقيقة شرعية، شهدت بها بداهة العقول، وأثبتها كتاب رب العالمين.

قال تعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦] .

وكيف يمكن لعاقل أن يجحد هذه الحقيقة وقد شهد بها حذاؤه الذي ينتعله، والثوب الذي يلبسه، والسيارة التي تقله، والمظلة التي تقيه حر الشمس، بل وطعامه وشرابه وكل شيء حوله ؟! فهو لا يعقل وجود شيء من هذه الأشياء دون صانع أوجده وهيأه لما أعد له من منفعة.

وإننا إذا طبقنا هذا الأساس، وشاهدنا ما لا يحصى من الأحداث التي تقع كل يوم في هذا الكون الفسيح، أيقنت عقولنا بأن لكل فعل منها فاعلاً لا محالة.

### الأساس الثاني: الفعل مرآة لقدرة فاعله وبعض صفاته.

ذلك بأن بين الفعل والفاعل علاقة قوية، فلا يكون شيء في الفعل إلا ولدى الفاعل قدرة على فعله، فإذا شاهدنا مصباحًا كهربائيًا عرفنا أن لدى صانع ذلك المصباح زجاجًا وأسلاكًا، وأن لديه قدرة على تشكيل الزجاج والأسلاك في الشكل الذي نراه في المصباح، وأن لديه خبرة بالكهرباء.

وإذا شاهدنا سيارة متحركة تسير في الطرقات المعبدة وتتحرك عند اللزوم، وتتوقف في المكان المعلوم، وتدور في المكان المعد للدوران، عرفنا أن سائق السيارة عاقل مفكر، وأن له إرادة حكيمة أحكمت توجيه السيارة، وأنه عليم بطرق قيادة السيارات.

وهكذا عرفنا شيئًا من قدرة الصانع والسائق وصفاتهما من الآثار المشاهدة لأفعالهما أمامنا، وبهذا كان الفعل مرآة لقدرة فاعله وبعض صفاته.

وقد دلنا القرآن الكريم على هذا الأساس العقلي، فحثنا على النظر في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء؛ لكي نتعرف من خلال هذا النظر على كثير من صفات الخالق الحكيم جل وعلا.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

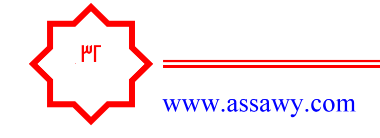
فظاهرة تكون المطر، ثم سوقه إلى الأرض الميتة، ثم حياة الأرض به من بعد موتها، تدل على وجود الصانع وعموم قدرته، خاصة على إحياء الموتى، كما تدل على رحمته جل وعلا، ولهذا قال تعالى بعد ذكر هذه الظواهر:

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

فالتعرف على بعض صفات الفاعل من خلال مشاهدة أفعاله وآثاره منهاج عقلي وشرعي، يحسه العقل بالضرورة، وتحث عليه النصوص الشرعية، وتعتمده أساسًا مهمًا تقيم عليه كثيرًا من حقائق الإيمان. وبتطبيق هذا الأساس نجد أن هذا الكون الكبير:

- يشهد بوجوده على أنه من صنع موجود دائم.

- وبعظمة تكوينه على أنه من صنع عظيم قدير.



- وبما فيه من حياة على أنه صنع حي دائم.

- وبما فيه من إحكام وتناسق وترابط على أنه من صنع حكيم عليم.

- وبنظامه الموحد وقوانينه الثابتة على أنه من صنع حاكم واحد مهيمن.

وبذلك تقدم لنا هذه المخلوقات شهادة يقينية على أنها من صنع موجود حكيم عليم عظيم قدير حي دائم لا يعجزه شيء، وبهذا نكون قد انتهينا إلى تقرير الملحد بوجود خالق حكيم عليم قدير عظيم حي مهيمن لا يعجزه شيء.

ثم نأتي إلى الأساس الثالث الذي يقوض آخر معقل للإلحاد ويأتي على بنيانه من القواعد.

**الأساس الثالث: فاقد الشيء لا يعطيه.**

**وهذه ضرورة عقلية شهد بها العقل ودلت عليها النصوص الشرعية، فلا يعقل أن ينسب إلى الأخرس فصاحة اللسان، وحسن البيان، وإلقاء الخطب البليغة التي تأخذ بمجامع القلوب !**

**ولا يعقل أن ينسب إلى حيوان لا يعقل، أو إلى جاهل غبي لا يعلم، أنه قام بإطلاق مركبة فضائية لغزو الفضاء الخارجي والتعرف على كثير من حقائقه !**

**ولا يعقل أن ينسب إلى بدوي يعيش في مجاهل الصحراء، يرعى إبله وغنمه، أنه قام بإجراء عملية دقيقة في المخ لاستئصال بعض الأورام الخبيثة ! أو أنه ألف كتابًا حول الذرة يشرح فيه بالوثائق العلمية كل ما يتعلق بها من حقائق !**

**كما لا يعقل أن ينسب إلى حجارة صماء القدرة على الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وإيصال النفع والضر إلى من تشاء.**

**قال تعالى:** ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ



﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [ الأعراف: ١٩١ - ١٩٨ ] .

وقــال تعــالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [ الفرقان: ٣ ] .

وقــال تعــالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [ النحل: ٢٠ - ٢١ ] .

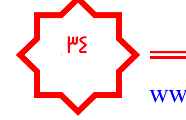
وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [ فاطر: ٤٠ ] .

وإذا طبقنا هذا الأساس وجدنا أنه لا يوجد قط في هذه المخلوقات من يصح أن ينسب إليـه الخلـق؛ لأنه ليس فيها من يوصف بأنه الحكيم العليم الخبير العظيم المهيمن الهادي الحي الدائم الباقي !

فليس في الطبيعة المزعومة شيء من ذلك يؤهلها لأن ينسب إليها خلـق أو تقـدير إلا كمـا يـصح أن ينسب إلى اللات والعزى أنها هي التي خلقت السموات والأرض، الأمر الذي لم يجرؤ علـى القـول بـه أكـابر المجرمين والمشركين على مدار التاريخ البشري كله !

وإذا لم يكن في المخلوقات ما يصح أن ينسب إليه الخلق، فقد تعـين أن يكـون خـالق الكـون هـو غـير الكون المخلوق أو الطبيعة المخلوقة.

قــال تعــالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [ الحشر: ٢٤ ] .



## ثالثا: شبهات الملاحدة واللادينيين.

لقد رد الملاحدة فكرة الألوهية من حيث المبدأ، ثم تفرقوا بعد ذلك شيعاً:

٭ فمنهم من زعم بأن هذا الكون قد وجد صدفة بغير تقدير ولا تدبير!

٭ ومنهم من نسب الخلق إلى الطبيعة، ثم تفرق هؤلاء بدورهم في تفسير هذه الطبيعة الخالقة:

- فمنهم من قال: إنها الكون نفسه بكل ما فيه.

- ومنهم من قال: إنها السنن والقوانين التي تحكم هذا الكون.

وسوف نناقش هذه الشبهات - عزيزي الدارس - في الفقرات الآتية وإن كنا نعلم سلفاً أن الأمر أهون من أن يلتفت إليه فضلاً عن أن يرد عليه !

### أولاً: بطلان القول بالصدفة:

إن القول بأن هذا الخلق كله قد حدث صدفة يعد من أبين الباطل وأمحل المحال، ومع ذلك فقد وجد من يقول به من سفهاء البشر! لقد زعم هكسلي وهو أحد الكتاب الملاحدة أنه لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها بلايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبتها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك الكون الموجود الآن، نتيجة لعمليات عمياء، ظلت تدور في المادة لبلايين السنين.

إن الصدفة تتنافى مع مبدأ الإحكام والتقدير والتدبير الذي يشهد به كل شيء في هذا الوجود من الذرة إلى المجرة، بل يشهد به واقع القوم أنفسهم، فلو قيل لهم: إن كل ما تطلقونه من الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية، قد حدث صدفة نتيجة لبعض التفاعلات الكيمائية بين بعض المواد الخام الموجودة بالصدفة في بلادكم، من غير تقدير منكم ولا تدبير، فهو لا يشهد لكم بتقدم علمي أو حضاري لفغروا أفواههم دهشة وعجبًا، وأوشكوا أن يفتكوا بمن يقول لهم ذلك !.

فيا عجبًا للإنسان عندما تتخطفه الشياطين، لا يقر للصدفة بخلق مركبة فضائية وتوجيهها إلى الفضاء، ويقر لها بخلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة !

ومن ناحية أخرى فإن للمصادفة قانونًا رياضيًا عقليًا لا تنفك عنه، ولا يمكن الخروج عليه، وهو أن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانات المتكافئة المتزاحمة، فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة ازداد حظ المصادفة من النجاح، وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة، ويظل يقل حتى يصبح في حكم العدم أو المستحيل.

**ولنتأمل هذا المثال:**

لو أن مطبعة بها نصف مليون حرف وتلك الأحرف مفرقة في صناديقها، فأصابتها هزة أرضية قلبت صناديق هذه الحروف وبعثرتها وخلطتها، فجاء من يخبرنا بأنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني فإن القضية هنا تبدو معقولة وقابلة للتصديق.

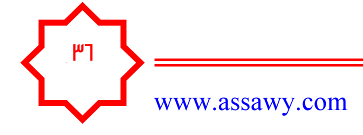
ولو قيل لنا: ﴿ إن الكلمات العشر ألفت جملة مفيدة كاملة، فإننا نستبعد ذلك ولكن لا نراه مستحيلاً.

١- أما لو قيل لنا: إن حروف المطبعة بكاملها تشكلت وكونت عند اختلاطها بالمصادفة كتابًا كاملا من ٥٠٠ صفحة يتضمن قصيدة واحدة، تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة، منسجمة بألفاظها وأوزانها. لا شك أننا في هذه الحالة نرى الاستحالة بديهية واضحة، والسبب في رؤية الاستحالة يعود إلى قانون الصدفة نفسه.

هذا.. مع مراعاة أن حروف المطبعة موجودة ومصفوفة في صناديقها، أما القضية في موضوع الكون فإنها من التعقيد لدرجة لا تستطيع أن تحيط بها عقول البشر كافة، مما يجعل الصدفة مستحيلة التصور في حد ذاتها، بَلهَ الوقوع.

يقول أحد المفكرين الغربيين: إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة !!

وينقل وحيد الدين خان عن العالم الأمريكي كريستي موريسون قوله: ﴿ لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة ثم رميتها في جيبك، وخلطتها جيداً، ثم حاولت أن تخرج من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي بحيث تلقي كل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى. فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه واحد في المحاولة الأولى هو واحد بالمائة، وإمكان أن نخرج



الدراهم [١، ٢، ٣، ٤] بالترتيب هو واحد في عشرة آلاف... حتى إن الإمكان في أن تنجح في تناول الدراهم من [١ - ١٠] بالترتيب واحد في عشرة بلايين من المحاولات ﷺ.

إن الزعم بأن هذا الكون قد وجد صدفة هو إلى هذيان السكارى أقرب منه إلى منطق العقلاء !!

## ثانياً: بطلان القول بخالقية الطبيعة:

نتوجه إلى الذين ينسبون الخلق إلى الطبيعة بهذا السؤال: ماذا تريدون بهذه الكلمة على وجه التحديد؟

- إن قلتم إنها الكون نفسه بكل ما فيه، فإن مآل هذا الزعم إلى القول بأن الشيء يخلق نفسه، فالكون هو الذي خلق الكون ! والسماء هي التي خلقت السماء! والأرض هي التي خلقت الأرض! وفساد هذا الزعم معلوم عند العقلاء بالضرورة، وما الطبيعة على هذا النحو إلا وثن جديد قد جمع الأوثان السابقة التي عبدها الوثنيون الأوائل.

لقد عرف التاريخ من عبدوا أجزاء من الطبيعة كالشمس والقمر والنجوم والأحجار والجن ونحوه، فانتهي هؤلاء إلى عبادة كل هذه الأوثان ما عبد منها وما لم يعبد تحت مسمى الطبيعة!

- وإن قلتم بأنها السنن والقوانين التي تحكم هذا الكون وتنظم أموره في كل جزئية قلنا: إن هذا القول يكشف عن الكيفية التي يعمل بها الكون ولكن لا يجيب عن السؤال المطروح: من خلق هذا الكون وأودع فيه ما أودع من السنن والقوانين؟ من ذا الذي أودع تلك المادة طبيعتها، وأكسبها خواصها، فإنها إن كانت لها من ذاتها، ومقتضى حقيقتها لم تقبل التغير والزوال لأن ما بالذات لا يتخلف ولا يزول وقد رأيناها تتخلف وتتبدل فلابد لها من واهب يهبها، وفاعل مختار حكيم يدبرها ويضعها في محالها، وليس ذلك من المادة وحدها ولا من خواصها، أو طبيعتها القائمة بها فإنها ليس لها من سعة العلم وكمال الحكمة وشمول المشيئة وعظيم القدرة ما ينتظم معه الكون على ما نشاهد من إحكام يبهر العقول دقته وجماله، ومن إبداع يأخذ بمجامع القلوب ما فيه من شدة الأسر وقوة الربط بين وحداته وكمال التناسب والتكافؤ بين أجزائه.

إننا نقول لهؤلاء: لقد عرفتم سنة نزول المطر وتكون السحب ولكن لم تفسروا لنا كيف صارت هذه السنة سنة ومن الذي جعلها كذلك؟! وإن ادعاءكم بعد كشفكم لبعض السنن أنكم قد كشفتم

تفسير الكون ليس سوى خدعة كبرى لأنفسكم، وما مثلكم إلا كمثل من جاء إلى حلقة من وسط السلسلة فوضعها في مكان الحلقة الأخيرة !

إن في القول بأن القوانين والتفاعلات الكيميائية هي التي جاءت بالإنسان مسخًا للإنسانية كلها ؛ ذلك أن التفاعل الكيميائي محدود الزمن والنتائج، فمعنى ذلك أن يصبح قيام الإنسان وقعوده وضحكه وبكاؤه ورضاه وغضبه أعمالاً ميكانيكية بحتة، تبدأ عند وجود التفاعل الكيميائي اللازم لوجودها وتنتهي بانتهائه ! ويقف الإنسان جنبًا إلى جنب مع بقية الآلات الميكانيكية التي تتحرك بالأزرار وتتوقف بالأزرار، بلا عقل ولا إرادة ولا اختيار ! بل ولا معنى إذن لأن يثاب الإنسان على خير أو يعاقب على شر لأن الأمر ليس إلا تفاعلات كيميائية أوجدت ما عمل من خير أو من شر !

لقد خلق الإنسان ذا علم وتدبير وإرادة وقدرة، فهل تملك هذه الطبيعة الجامدة العلم والتدبير والقدرة، حتى تكون هي التي منحت ذلك للإنسان؟! وما الفرق بين هذا القول وبين من يزعم أن اللات والعزى وهبل ومناة هي التي خلقت الإنسان، وزودته بكل ما تميز به عن غيره من المخلوقات ؟!

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [ مريم: ٤١- ٤٢ ] .

وإذا كانت الطبيعة هي الخالقة فكيف سُخرت للإنسان، وأصبح سيدًا عليها يبني ويهدم ويتصرف بأجزائها كيف يشاء، وهي لا تقاوم سيطرة الإنسان ولا تتمرد عليه، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا ؟!

قال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [ الأعراف: ١٩١- ١٩٢ ] .

وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ الجاثية: ١٣ ] .

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [ لقمان: ٢٠ ] .

ألا إن الطبيعة صماء لا تسمع، بكماء لا تنطق، عمياء لا تبصر، جاهلة لا تعلم، مسخرة لمن أودعها المادة، خاضعة لتصريفه وتقديره، سائرة على ما رسم لها من سنن لا تعدوها ونواميس لا تخرج عليها، فأنى يكون لها خلق وإبداع، أو إليها تنظيم وتدبير، أو منها وحي وتشريع؟!. إنما ذلك إلى الله وحده - تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيرًا !

إن هؤلاء الملاحدة قد كفروا بما استكن في الفطر، وتقرر في بداهة العقول، واستفاض في حقائق التاريخ الثابتة والتواتر المضطرد جيلاً بعد جيل، فلم يبق عندهم ما نحاكمهم إليه أو نعول في حجاجهم عليه، فضلاً عن أنهم لا يملكون على بهتانهم هذا دليلاً ولا أثارة من دليل، فالأدلة على بطلان مزاعمهم عدد الرمل والحصى والنجوم، بل عدد ما خلق الله في السماوات والأرض !!

- فإن حاكمتهم إلى الفطر التي جبلت على الإقرار بخالقها، بحيث لا تملك لذلك دفعًا، تبين لك ما هم فيه من كفر وعمى.

- وإن حاكمتهم إلى بداهة العقول التي تجزم بضرورة الخالق، لاستحالة وجود خلق بغير خالق، تبين لك ما هم فيه من جحود ومكابرة.

- وإن حاكمتهم إلى إجماع الأمم واتفاقها على معرفة الله والإقرار به، تبين لك ما هم فيه من شذوذ ومراغمة.

- وإن حاكمتهم إلى حقائق التاريخ التي تقطع ببعثة الرسل وتأييد الله لهم بالخوارق، تبين لك ما هم فيه من بهت وضلال، فأية شقاوة تعدل هذه الشقاوة ؟! وأي خذلان يعدل هذا الخذلان ؟!

# خلاصة الوحدة الثانية

- الوجود صفة لله جل وعلا بإجماع المسلمين وجميع العقلاء حتى المشركين. والوجود نوعان:

الأول: وجود ذاتي لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم.

والثاني: وجود حادث وهو ما كان حادثا بعد عدم.

والأدلة على وجود الله بعدد مخلوقات الله.

- من دلائل ربوبية الله عز وجل:

١- دلالة الفطرة: وهي ذلك الشعور الذي يملأ على الإنسان أقطار نفسه، إقراراً بخالقه، وتألهًا له، والتجاءً إليه. وهذه الفطرة هي الميثاق الذي أخذه الله بربوبيته على بني آدم.

٢- دلالة الآيات الكونية.

أ - دليل الخلق. ب - دليل التسوية.

جـ- دليل التقدير. د - دليل الهداية.

٣- دلالة الحس وهي من وجهين:

أولهما: ما نشهده ونسمعه من إجابة الداعين وغوث المكروبين.

ثانيهما: ما أيد الله به رسله من المعجزات التي تدل بنفسها على ثبوت الصانع، والتي إذا تقررت بها النبوة والرسالة فقد تقررت بها الربوبية كذلك، وتعتبر النبوة أصلاً في وجوب قبول جميع ما دعا إليه النبي من حقائق الألوهية والربوبية وغيرها.

٤- دلالة إجماع الأمم.

٥- دلالة العقل: والتي تقوم على ثلاثة أسس:

فالأول: أن العدم لا يخلق شيئاً.

والثاني: أن الفعل مرآة لقدرة فاعله وبعض صفاته.

والثالث: أن فاقد الشيء لا يعطيه.

- زعم بعض الملاحدة أن الكون وجد صدفة وزعم بعضهم أن الطبيعة خلقته، وهي مزاعم أوهن وأهون من أن يلتفت إليها فضلاً عن أن يرد عليها.

# الوحدة الثالثة

## أولاً: توحيد الربوبية

وهو توحيد الله بأفعاله، واعتقاد تفرده بالخلق والملك والرزق والتدبير، فهو وحده الذي يخلق الخلق ويدبر الأمر، وهو وحده الذي يرسل الرسل ويشرع الشرائع ليحق الحق بكلماته، ويقيم العدل بين عباده شرعاً وقدراً، إلى غير ذلك مما لا يحصيه العد ولا يحيط به القول.

★ قال تعالى مبينًا تفرده بالخلق: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [ الزمر: ٦٢ ].

★ وقال تعالى مبينًا تفرده بالأمر:﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [ آل عمران: ١٥٤ ] .

★ وجمع بين الأمرين فقال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [ الأعراف: ٤٥] .

أي له الملك وله التصرف، لا راد لقضائه ولا معقب على حكمه،لم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل.

★ وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [ طه: ٥٠] .

فهو الذي خلق الخلق وقدر القدر وجبل الخليقة على ما أراد، وهو الذي أعطى كل خلق ما يصلحه، وأعطى كل شيء ما ينبغي له، وهيأ كل شيء على ذلك.

# ثانياً: لا يكفي الإقرار بالربوبية للبراءة من الشرك

وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وإن كان لا يكفي وحده للبراءة من الشرك، فإنه لم يذهب إلى نقيضه بالكلية طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل - عليهم السلام - فيما حكى الله عنهم:

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [ إبراهيم:١٠ ] .

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقناً به في الباطن، كما قال له موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [ الإسراء: ١٠٢] ، وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [ النمل: ١٤] .

ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن للعالم صانعين متماثلين في الصفات والأفعال:

- فالثنوية من المجوس، والمانوية القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما: متفقون على أن النور خير من الظلمة، وأنه الإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة: هل هي قديمة أو محدثة ؟ فلم يثبتوا ربين متماثلين.

- والنصارى القائلون بالتثليث، لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل هم متفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون: باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد. وقولهم في التثليث متناقض في نفسه، وقولهم في الحلول أفسد منه، ولهذا كانوا مضطربين في فهمه، وفي التعبير عنه، وفي الجملة فهم لا يقولون بإثبات خالقين متماثلين.

- ومشركوا العرب وغيرهم من الأمم كانوا يقرون على الجملة بالخلق والرزق والتدبير. قال تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [ العنكبوت: ٦٣ ] .

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

# ثالثاً: وقوع الشرك في بعض الربوبية

وهذا الإقرار المجمل من المشركين بالربوبية لا يعني أنه لم يقع شرك في الربوبية قط، بل قد وقع الشرك في بعض الربوبية لدى بعض الناس، كاعتقاد بعض المشركين أن ثم خالقاً خلق بعض العالم كما سبقت الإشارة إلى الثنوية والمانوية وبعض الفلاسفة وغيرهم ممن يثبتون أموراً محدثة بغير إحداث الله لها، أو اعتقاد بعضهم في آلهتهم شيئاً من النفع والضر لم يخلقه الله، كما قال قوم هود لنبيهم:

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [ هود: ٥٤ ] .

أو كما خوف قوم إبراهيم - عليه السلام- نبيهم بشركائهم فناظرهم بقوله: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨١] .

ولما كان هذا الشرك في الربوبية موجودًا في الناس بيّن القرآن بطلانه كما في قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [ المؤمنون: ٩١].

فتأمل هذا البرهان الباهر، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقاً فاعلاً، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه، لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك، وتفرد بالملك والإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه، وذهب بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكه إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه، فلابد من أحد ثلاثة أمور:

* إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.
* وإما أن يعلو بعضهم على بعض.
* وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله، وإحكام أمره، من أدل الأدلة على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه [راجع شرح الطحاوية: ٣٩.

كما أن هذا لا يعنى أنهم أتوا به على النحو الذي جاءت به الرسل، إذ لو كان كذلك لقادهم حتمًا إلى عبادة الله وحده، ولكنه إيمان منقوص ومدخول،لم يتواطأ فيه اطمئنان الجنان مع إقرار اللسان، ولم يأتلف فيه عمل القلب مع قول القلب، ولم يخل من شوائب من الشرك كما سبق.

# رابعاً: الإيمان بالربوبية هو المدخل إلى توحيد الألوهية

كما لا يعني القول بأن توحيد الربوبية مما أقر به المشركون الأوائل أن نضرب الذكر عن دراسته صفحاً، أو أن تتجاوزه الدراسات الأكاديمية واللقاءات الدعوية، فإن جل ما ورد في القرآن الكريم متعلقاً بالتوحيد إنما كان في تقرير هذا التوحيد ليؤسس عليه الدعوة إلى عبادة الله وحده، فلن يثبت توحيد الألوهية إلا على قاعدة مكينة صلبة من توحيد الربوبية، فإن من يرسخ يقينه بتفرد الله بالخلق والملك والرزق والتدبير لابد أن يتوجه بدعائه وعبادته إليه وحده وإلا فهو التناقض أو الجنون!

وتأمل - قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

فقد جعل من تفرد الله بالخلق والرزق دليلاً على تفرده بالألوهية واستحقاقه وحده للعبادة.

وتأمل قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٤ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤-٦٥] .

وقوله تعالى في سورة النمل: ﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [ النمل: ٦٠-٦٤ ] .

فقد جعل من مظاهر تفرده بالربوبية في الخلق والرزق والتدبير دليلاً على تفرده بالألوهية واستحقاقه وحده للعبادة.

ولو تدبرت في جميع الآيات التي وردت في إقرار المشركين بالربوبية لوجدتها تجعل من هذا الإقرار مدخلاً للدعوة إلى توحيد الألوهية وبرهاناً عليه.

قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].
فقد جعل من هذه الإقرارات مدخلاً لدعوتهم إلى نفي التشريك في باب الألوهية.

ولو تدبرت أيضاً في جميع الآيات التي نعت على المشركين عبادة الأوثان لوجدت احتجاجها عليهم بأن هذه الأوثان لا تملك شيئاً من مظاهر الربوبية، فهي لا تخلق ولا ترزق ولا تضر ولا تنفع، ولا تملك تدبيراً ولا تأثيراً، فكيف يعبد من هذا حاله ؟!

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٠-٢٢] ، وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤١-٤٢] .

وقال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف١٩١- ١٩٢] .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

[العنكبوت: ١٧] .

فقد جعل من عجز هذه الآلهة المزعومة عن الخلق والرزق والتدبير دليلاً على بطلان عبادتها من دون الله.

ومن هنا يجب أن تعنى الدراسات العلمية بإحياء فريضة النظر في ملكوت السموات والأرض، والتدبر في مظاهر ربوبية الله لهذا الكون، فإنها تحيي الإيمان وتجدد ربيعه في القلب، وتسوق صاحبها سوقاً إلى الإخبات لله جلا وعلا وإفراده وحده بالعبادة.

# خلاصة الوحدة الثالثة

- توحيد الربوبية: هو توحيد الله بأفعاله واعتقاد تفرده بالخلق والملك والرزق والتدبير.

- ولا يكفي الإقرار بالربوبية للبراءة من الشرك، فقد كانت الأمم تقر بالربوبية وتكفر بالألوهية فلم يخرجها إقرارها عن الوصم بالشرك، وحتى ذلك الإقرار لم يأتوا به على النحو الذي جاءت به الرسل وإلا لقادهم حتماً إلى عبادة الله وحده، ولكنه إيمان منقوص ومدخول لم يخل من شوائب الشرك، كاعتقادهم الخلق والنفع والضر في آلهتهم المزعومة من دون الله.

- الإيمان بالربوبية هو المدخل إلى توحيد الألوهية، فلن يثبت توحيد الألوهية إلا على قاعدة مكينة صلبة من توحيد الربوبية، فإن من يرسخ يقينه بتفرد الله بالخلق والملك والرزق والتدبير لابد أن يتوجه بدعائه وعبادته إليه وحده، وإلا فهو التناقض أو الجنون.

- إن جميع الآيات التي وردت في إقرار المشركين بالربوبية تجعل من هذا الإقرار مدخلاً للدعوة إلي توحيد الألوهية وبرهاناً عليه.

- وجميع الآيات التي نعت علي المشركين عبادة الأوثان تحتج عليهم بأن هذه الأوثان لا تملك شيئاً من مظاهر الربوبية.

# الوحدة الرابعة

## أولاً: توحيد الألوهية وتعريف العبادة

**توحيد الألوهية:** هو إفراد الله بالعبادة قولاً وفعلاً وقصداً، والبراءة من كل معبود من دونه، فالإله هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة وحده دون سواه.

### تعريف العبادة:

- والعبادة هي التأله والتذلل لله وحده، والانقياد له سبحانه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وقد عرفها العلماء بأنها: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

⋆ فيدخل فيها الرغبة والرهبة والحب والخوف والرجاء وغير ذلك من أعمال القلوب،كما تدخل فيها الصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك من أعمال الجوارح.

⋆ ويدخل فيها التحاكم إلى شريعة الله، وموالاة المؤمنين من عباد الله، والتوجه بالدعاء والاستغاثة إلى الله، وغير ذلك من مسائل أصول الدين، كما يدخل فيها الوفاء بالوعد وأداء الأمانة وصلة الرحم وصدق الحديث وغير ذلك من فروع العبادات والطاعة.

فكل أصول الدين وفروعه يندرج في معنى العبادة، وتوحيد الألوهية يقتضي - كما سبق - إفراد الله بكل هذه العبادات، والتوجه بها إليه وحده.

## ثانياً: من المفاهيم المغلوطة في باب العبادة

ونبادر هنا إلى التأكيد على أن اختزال مفهوم العبادة في باب الشعائر التعبدية فحسب من المفاهيم المغلوطة الشائعة بين الناس، ولعلها أثر من آثار العلمانية الغازية وما تروج له من الفصل بين الدين والحياة، والصواب - كما سبق - أن كل قول أو فعل يحبه الله ويرضاه فهو عبادة، وأن العاديات تتحول مع النية الصالحة إلى عبادات، ولهذا قال ﷺ : (( وإن في بضع أحدكم صدقة)) أي في إتيان الرجل أهله صدقة، وعندما سأل الصحابة رسول الله ﷺ : أيأتي أحدنا أهله فيكون له صدقة؟! فقال: (( أرأيتم إذا وضعها في الحرام أيكون عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال فإنها تكون له أجرًا )) . وعلى سبيل المثال فإن كفالة أمور المسلمين والقيام بحاجاتهم العامة من الزراعات والصناعات ونحوه يعد من جملة فروض الكفايات، ويلتحق مع النية الصالحة بأبواب العبادات.

# ثالثاً: أنواع العبودية

## العبودية أنواع:

ـ عبودية كونية عامة لجميع الخلق في كل زمان ومكان، وهذه ليست لأحد إلا لله وحده، وهي عبودية تسخير وتسيير، ويدخل في إطارها البر والفاجر والمسلم والكافر، لا يخرج عن سلطانها أحد، ومقتضاها تصرف الله في خلقه كيف يشاء، وانقيادهم له طوعًا وكرهًا، كما قال تعالى:

﴿ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣] ، وقال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣ـ ٩٥].

ـ وعبودية خاصة يصطفي الله لها من يشاء من عباده الصالحين، وهي عبودية تشريف وتكريم، كما قال تعالى في الملائكة: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦] . وقال في نبينا محمد ﷺ :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: ١]، وقال في عموم الصالحين من عباده: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] .

ـ وهناك نوع ثالث من العبودية وهي التي تكون بين مخلوق ومخلوق، وهي عبودية خاصة محدودة ومؤقتة، وهي قسمان:

* مشروعة، وهي التي تكون عن حرب إسلامية للكفار، خولها الله للغانمين ولمن اشترى منهم، وجعل لها حقوقًا كثيرة ليس هذا موضع بسطها.

* غير مشروعة، وهي تكون عن سرقة أحرار أو التسلط عليهم ظلمًا وعدوانًا، أو تكون بشراء من هؤلاء، لقول النبي ﷺ : (( يقول الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه حقه ))[ متفق عليه ].

## رابعاً: أهمية توحيد الألوهية ومنزلته من الدين

**هذا التوحيد هو أعظم أنواع التوحيد وأهمها على الإطلاق، بل هو الذي يتبادر إلي الذهن عند إطلاق كلمة توحيد، ومن أبين الدلائل علي أهميته ما يلي:**

**٭ أنه دعوة الرسل أجمعين، وأول ما يخاطب به الناس من أمور الدين، وهو معقد النجاة في الدنيا والآخرة.**

**ـ أما أنه دعوة الرسل أجمعين، فلقوله تعالى:** ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، **وقوله:** ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ، **وقوله:** ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحقاف: ٢١] ، **وقوله:** ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

**وقوله ﷺ :(( الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتي ودينهم واحد ))** [رواه البخاري] . **فالدين واحد وهو التوحيد، والشرائع متفاوتة، لقوله تعالى:** ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] . **وقد انعقد على هذا المعنى إجماع المسلمين.**

**ـ وأما أنه أول ما يخاطب به الناس من أمور الدين، فلأن سائر الأعمال لا تقبل ولا تصح إلا به، فكما لا تقبل صلاة بلا بوضوء، لا تقبل عبادة بلا توحيد.**

**٭ قال تعالى:** ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] .

**فاشترط الإيمان مع العمل الصالح للحياة الطيبة في الدنيا والمثوبة الحسنة في الآخرة.**

★ وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [ النساء: ١٢٤ ] ، فاشترط الإيمان مع العمل الصالح لدخول الجنة.

★ وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [ الأنبياء: ٩٤ ]. فاشترط الإيمان مع العمل الصالح ليشكر له سعيه، ويثاب عليه في الآخرة.

★ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [ الزمر: ٦٥ - ٦٦ ]. وقال تعالى عن أنبيائه: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام:٨٨ ] .

ولهذا قال ﷺ لمعاذ عندما بعثه إلى اليمن: (( يا معاذ، إنك تأتي قومًا من أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوقّ كرائم أموالهم )) [ متفق عليه ] .

- وأما أنه معقد النجاة في الدنيا، فلأنه بالإقرار بالتوحيد والرسالة يثبت عقد الإسلام وتعصم الدماء والأموال إلا بحقه. قال ﷺ : (( أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله )) [ رواه البخاري ] .

فكل من أقر بالتوحيد والرسالة إقرارًا التزاميًا، قاصدًا به الإجابة إلى الإيمان، فقد ثبت له عقد الإسلام، ووجب له بمقتضاه عصمة دمه وماله إلا بحق الإسلام ؛ من ردة بعد إسلام، أو زنًا بعد إحصان، أو قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ونحوه.

- وأما أنه معقد النجاة في الآخرة، فلقوله - ﷺ - وقد سئل: ما الموجبتان ؟ فقال: (( من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار )) وقوله ﷺ: (( من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة )) [ رواه مسلم ] ، وقوله ﷺ (( أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة )) [ رواه مسلم ] ، وفي رواية «فيحجب عن الجنة»، ولقوله ﷺ لمعاذ:

(( يا معاذ، تدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ » قال: قلت: الله ورسوله أعلم قال: « فإن حق الله على العباد، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله عز وجل ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا » قال: قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس ؟ قال: « لا تبشرهم فيتكلوا ))

[رواه مسلم] .

- أنه شعار الإسلام الذي يميزه عما سواه من الديانات سواء الوثنية منها أو الكتابية المحرفة، حتى أصبح إعلان التوحيد شعيرة يومية يكررها المسلم يوميًا تسع مرات في تشهده وخمس مرات في إقامته، ويستقبل بها المولود لحظة نزوله إلى الدنيا بما شرع من الأذان في أذنه اليمنى، ويودع بها المحتضر لحظة خروجه من الدنيا بما شرع من تلقين المحتضر.

- إن القرآن الكريم كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائه، ذلك أن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الأخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

# خامساً: الطريق إلى إثبات توحيد الألوهية

إن الطريق الفطري إلى إثبات توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية، فقد جبلت القلوب على التعلق بمصدر خلقها ومنشأ نفعها وضرها، ثم تنتقل بعد ذلك إلي الوسائل التي تقربها إليه وترضيه عنها، فتوحيد الربوبية هو المدخل إلى توحيد الألوهية، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في مبحث توحيد الربوبية فلا نعيده منعاً للإطالة.

ولكن الذي نؤكد عليه في هذا المقام هو ضرورة الاهتمام بالدراسات والأبحاث التي تجدد الإيمان بالربوبية وتعمق في النفس الإيمان بتفرد الله وحده بالخلق والملك والرزق والتدبير، وتملأ القلوب يقيناً بأنه لا يسوق الخير إلا الله ولا يصرف السوء إلا الله، وأن ما بنا من نعمة فمن الله، فإن هذا هو الطريق إلى تجريد التوحيد في باب الألوهية وإزالة ما علق به من الغبش والمفاهيم المغلوطة بفعل فرق الضلالة وأهل الأهواء، وقد سبقت الإشارة إلى أن القرآن الكريم قد احتج على المشركين بتوحيد الربوبية لإثبات توحيد الألوهية ودعوتهم إليه، وأرشد رسوله ﷺ إلى هذه الطريقة وأمره أن يدعو بها قومه، وحسبنا أن نتأمل موضعين في كتاب الله عز وجل للدلالة على هذه الحقيقة، الأول في سورة البقرة والثاني في سورة المؤمنون:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٲشً۬ا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً۬ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً۬ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٲتِ رِزۡقً۬ا لَّكُمۡ‌ۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادً۬ا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١- ٢٢].

فتأمل كيف جعل من مظاهر تفرده بالربوبية في خلق الحاضرين والغابرين وتمهيد الأرض ورفع السماء وإنزال الماء منها وإخراج الرزق من الثمرات باباً إلى توحيد الألوهية وآية بينة على استحقاقه وحده للعبادة.

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ‌ۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٲتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ‌ۚ قُلۡ أَفَلَا

تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [ المؤمنون: ٨٤-٨٩ ].

**فتأمل كيف استدل بتفرده بالربوبية وكمال التصرف وحمايته لمن يستجير به على استحقاقه وحده للعبادة ووجوب إفراده بالألوهية.**

# سادساً: أركان توحيد الألوهية

لتوحيد الألوهية ركنان عظيمان:

- إفراد الله بالمحبة والتعظيم والتأله.

- إفراد الله بالطاعة والانقياد والتسليم.

وحول تفصيل القول في هذين الركنين وما شابهما لدى كثير من الناس من الخلل في واقعنا المعاصر سيكون حديثنا في الوحدتين التاليتين.

# خلاصة الوحدة الرابعة

**توحيد الألوهية:** هو إفراد الله بالعبادة قولاً وفعلاً وقصداً، والبراءة من كل معبود من دونه .

- **والعبادة** هي التأله والتذلل لله وحده، والانقياد له سبحانه بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه ، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة ، فكل أحوال الدين وفروعه يندرج في معنى العبادة .

- اختزال مفهوم العبادة في باب الشعائر التعبدية فحسب من المفاهيم المغلوطة الشائعة بين الناس.

## - أنواع العبودية:

١- عبودية كونية عامة لجميع الخلق في كل زمان ومكان وهي عبودية تسخير وتسيير .

٢- وعبودية خاصة يصطفي الله لها من يشاء من عباده الصالحين وهي عبودية تشريف وتكريم .

٣- وعبودية خاصة محدودة ومؤقتة ، وهي التي تكون بين مخلوق ومخلوق (الرق) وقد تكون مشروعة أو غير مشروعة تبعاً لسبب الرق من أسر للكفار أو سرقة للأحرار - على الترتيب.

- توحيد الألوهية هو أعظم أنواع التوحيد وأهمها على الإطلاق وذلك لما يلي:

١- أنه دعوة الرسل أجمعين ، وأول ما يخاطب به الناس من أمور الدين، وهو معقد النجاة في الدنيا والآخرة .

٢- أنه شعار الإسلام الذي يميزه عما سواه من الديانات.

٣- أن القرآن الكريم كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائه .

- الطريق الفطري لإثبات توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية .

- لتوحيد الألوهية ركنان عظيمان:

١- إفراد الله بالمحبة والتعظيم والتأله .

٢- إفراد الله بالطاعة والانقياد والتسليم .

# الوحدة الخامسة

## أولاً: معنى توحيد القصد والتأله

هو إفراد الله بالتأله والتنسك، والتوجه إليه وحده بسائر أنواع العبادات القولية والعملية؛ كالحب والتعظيم، والرغبة والرهبة، والإنابة والرجاء والتوكل، والدعاء والاستغاثة، والذبح والنذر، والركوع والسجود، وغير ذلك.

⋆ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [ الأنعام: ١٦٢- ١٦٣] .

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم، وأنه متوجه بكل أعماله إلى الله وحده لا شريك له.

⋆ وقد كان الغلو في الصالحين أساس الشرك في بني آدم، فقد صارت الأصنام التي كانت في قوم نوح في العرب، وكانت في الأصل صور رجال صالحين فلم يزل الشيطان بأوليائه حتى زين لهم عبادتها من دون الله، قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾

[ نوح: ٢٣] .

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمذان، وأما نسر فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

⋆ ولهذا نهى النبي - ﷺ - عن الغلو فقال ﷺ : (( لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله )) [ متفق عليه ] . والإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه.

★ وقال ﷺ : (( إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين )) [رواه النسائي، وابن ماجه، وأحمد في المسند ].

★ وعندما سمع النبي - ﷺ - جارية تنسب إليه علم الغيب نهاها عن ذلك لما يتضمنه من الغلو، فقد روى البخاري في صحيحه عن الربيع بنت معوذ ابن عفراء قالت: جاء النبي - ﷺ - يدخل حين بُني عليّ فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد! فقال ((دعي هذه، وقولي بالذي كنت تقولين))

وقد ضل الخرافيون وغلاة القبوريين في واقعنا المعاصر في هذا الباب، فاتخذوا من الأولياء والصالحين أندادًا يحبونهم كحب الله، وتوجهوا إليهم بكثير من ألوان العبادات كالدعاء والاستغاثة والذبح والنذر ونحوه، وسرى هذا الباطل في الأمة مسرى النار في الهشيم، ولكن الله عز وجل قد قيض لهذا الدين من ينفي عنه تحريف الغالين وتأويل المبطلين وانتحال الجاهلين، فانبعث المجددون من دعاة التوحيد الخالص يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله، ويوطئون للحق مهادًا في أرض الله، ويقومون بحجة الله على عباد الله.

ولم تكن معركة التوحيد يومئذ قاصرة على مواجهة ضلال القبوريين في باب النسك، بل تعدت ذلك إلى مواجهة شرك العلمانيين في العدول عن شريعة الله.

وسوف نتناول في هذه الوحدة بعض صور العبادة التي ضل فيها كثير من القبوريين ومن دار في فلكهم فتوجهوا بها لغير الله، ثم نتناول بقية الجوانب تباعًا في الوحدات التالية بإذن الله.

# ثانياً: الدعاء والاستغاثة والاستعاذة

## أولاً: الدعاء:

الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. ويراد به في القرآن هذا تارة وهذا تارة، وقد يراد به مجموعهما.

- **فدعاء المسألة:** هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر. ولهذا أنكر القرآن على من يدعو أحدًا من دون الله ممن لا يملك ذلك. قال تعالى:

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦] .

وهذا الدعاء متضمن لدعاء العبادة، لأن السائل أخلص سؤاله لله، ورغب إليه بخضوع وتذلل، وذلك من أفضل العبادات، ولهذا فقد سمته نصوص الكتاب والسنة عبادة، فمن جحد ذلك فقد صادم النصوص واللغة واستعمال الأمة.

ومن الأدلة على أن هذا الدعاء من العبادة ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] .

- وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [ الأحقاف: ٥-٦ ].

- قوله ﷺ : (( إن الدعاء هو العبادة )) [(١)].

- **ودعاء العبادة:** هو سائر القربات من ذكر وتلاوة وصلاة ونسك. وسميت هذه الأشياء دعاء إما لأنها بمنزلته في استيجاب ثواب الله وجزائه؛ لأن من شغلته عبادة ربه عن دعائه فإن الله عز وجل يعطيه أفضل ما يعطي السائلين، أو باعتبار كون الذاكر والتالي والمصلي والمتقرب بالنسك طالبًا في المعنى، وقد شرع الله في الصلاة من دعاء المسألة ما لا تصح الصلاة إلا به، كما في الفاتحة وبين السجدتين والتشهد، وذلك عبادة كالركوع والسجود.

---

(١) أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وابن حبان (٢٣٩٦ – زوائده)، والحاكم (١/٤٩٠، ٤٩١).

وهكذا فإن دعاء العبادة يستلزم دعاء المسألة، ودعاء المسألة يتضمن دعاء العبادة، وليس استعمال لفظ الدعاء في الدلالة على هذين المعنيين من قبيل استخدام اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هو استعمال في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعًا.

## ثانيًا: الاستغاثة:

أما الاستغاثة: فهي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة. والفرق بينها وبين الدعاء أنها لا تكون إلا من المكروب بخلاف الدعاء فإنه أعم من ذلك، فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص، فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة.

وقد أمرنا الله عز وجل بدعائه وحده، وحذرنا من أن ندعو معه أو من دونه آلهة أخرى، وقد استفاض هذا المعنى في القرآن الكريم والسنة المطهرة. قال تعالى:

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨] .

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] .

وقال تعالى ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣] .

وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥] .

★وقال تعالى مشيرًا إلى عبثية دعاء غير الله، وأن الأنداد لا يملكون لأنفسهم - فضلا عمن يلوذ بهم - شيئا: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣-١٤] .

★ وقال تعالى ناعيًا على المشركين عبادة غير الله، ومبينا عجز هذه الآلهة: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ

﴿ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [ الأعراف: ١٩١- ١٩٥].

وفي هذه الآيات إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأوثان وهي مخلوقة لله عز وجل، لا تملك شيئًا من الأمر: فلا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تنتصر لعابديها، بل إن عابديها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، فكيف ساغ لهم عبادتها من دون الله ؟!

★ وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [ الفرقان: ٣].

فإذا كانت هذه الأنداد لا تملك لنفسها شيئًا فكيف تملكه لعابديها ؟! وإذا كانت عاجزة لا تقدر على شيء فكيف يسوغ أن تعبد ؟!

★ وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [ الإسراء: ٥٦- ٥٧ ] .

فهذه الآلهة التي يزعمونها من دون الله لا تملك كشف الضر عن عابديها فكيف تستحق أن تعبد من دون الله ؟! وإن تعجب فعجب أن بعض هؤلاء الأنداد قد أسلموا لله وأنابوا إليه، ولا يزال المشركون يتعبدون لهم من دون الله، ففي الصحيحين في معنى هذه الآية عن عبد الله بن مسعود قال: كان نفراً من الجن أسلموا، وكانوا يعبدون، فبقي الذين كانوا يعبدون على عبادتهم، وقد أسلم النفر من الجن !! وفي رواية عند مسلم كان نفر من الإنس يعبدون نفرا من الجن، فأسلم النفر من الجن واستمسك الإنس بعبادتهم فنزلت: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾. وقال ﷺ : (( إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)) [ أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح ].

أما الاستغاثة فلا تطلب من المخلوق إلا فيما يقدر عليه، كقوله تعالى:

﴿ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص: ١٥] .

أما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يطلب إلا من الله، فإن استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق، أو كاستغاثة السجين بالسجين، فمن توجه إلى غير الله بدعاء أو استغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك بالله العظيم؛ لأنه صرف حق الربوبية عمن يستحقه وتوجه به لمن لا يستحقه، وضابط ذلك أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعله لله عبادة، وصرفه لغير الله إشراك بالله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والدعاء من جملة العبادات، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم مع أن هذا أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر إيجاب ولا استحباب كان مبتدعًا في الدين، مشركًا برب العالمين، متبعًا غير سبيل المؤمنين». [ مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢١٣/١ ].

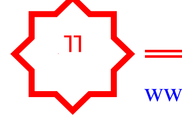
## مراتب الأدعية البدعية:

### ومما يجدر التنبيه عليه أن الأدعية البدعية على ثلاث مراتب:

⭑ **الأولى**: دعاء غير الله من الموتى أو الغائبين، سواء أكانوا من الأنبياء والصالحين أو غيرهم، والتوجه إليهم في قضاء الحوائج أو كشف الكروب، فهذا هو الشرك بالله، فطلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم هو أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فضلاً عمن استغاث به، كذلك الغائب فإنه ليس له من الأمر من شيء، وإنما الأمر كله لله، فاستغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق أو كاستغاثة السجين بالسجين!

ومن أمثلة ذلك قول بعض الضلال والجهال: يا سيدي فلان أغثني أو انصرني على عدوي، وأقبح منه من يناديه فيقول: اغفر لي وتب عليّ ! ولقد سمعنا عن بعض البلاد أنه إذا هطل المطر بشدة هتف القبوريون: « يا سيدي عبد القادر، الطف بعبادك ! »، فكل هذا شرك وضلال يستتاب منه صاحبه، فإن تاب وإلا قتل.

⭑ **الثانية**: طلب الدعاء من الميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين، كأن يقول: ادع الله لي، أو: اسأل الله لنا، كما تقول النصارى لمريم وغيرها، وهذا من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة، ولا يستريب عالم في حرمة ذلك وعدم جوازه، ذلك أنه إذا كان لا يشرع للمسلم أن يقصد الصلاة إلى القبور، ولا أن يقصد القبور عند الدعاء لله تعالى، فلأن يسأل الميت نفسه أولى بعدم الجواز.



فعلم أنه لا يجوز أن يسأل الميت شيئًا، لا أن يطلب منه أن يدعو الله له ولا غير ذلك، ولا يجوز أن يشكي إليه شيئًا من مصائب الدنيا والدين، ولو جاز أن يشكي إليه ذلك في حياته، فإن ذلك في حياته لا يفضي إلى الشرك وهذا يفضي إلى الشرك، ولا يلزم من جواز الشيء في حياته جوازه بعد موته، فهذا بيت رسول الله - ﷺ- تحرم الصلاة فيه أو اتخاذه مسجدًا بعد أن دفن فيه بأبي هو وأمي - ﷺ - أما قبل ذلك فهذا كله جائز ومشروع.

وقد كان أصحابه - ﷺ- يبتلون بأنواع من البلاء بعد موته؛ فتارة بالجدب، وتارة بنقص الرزق، وتارة بالخوف وقوة العدو، وتارة بالذنوب والمعاصي، ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبره - ﷺ - أو قبر غيره من الأنبياء فيشتكي إليه ذلك، أو يسأله الدعاء برفع هذا البلاء، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة، فهو مما علم بالاضطرار من دين الإسلام، وبالنقل المتواتر، وبإجماع المسلمين أن النبي ﷺ لم يشرعه لأمته.

⋆ **الثالثة:** التوسل إلى الله بذات أحد من الصالحين أو بجاهه، وهو من البدع المحدثة، لأن جاه أولياء الله وإن كان عظيمًا عند الله وخاصة سيد الأولياء محمد - ﷺ- إلا أنه ليس سببًا شرعيًا ولا عاديًا لاستجابة الدعاء، ومن ثم لم يعرف عن صحابة رسول الله - ﷺ - أنهم توسلوا به -ﷺ - بعد وفاته وهم خير القرون وأعرف الناس بحقه - ﷺ - وأحبهم له.

أما قول عمر بن الخطاب: ﵁ اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ﵁؛ فهو توسل بدعائه وشفاعته، وليس توسلاً بذاته أو بجاهه ؛ إذ لو كان التوسل بالذات أو الجاه مشروعًا لم يعدل عمر والمهاجرون والأنصار عن السؤال بالرسول - ﷺ- إلى السؤال بالعباس، فلفظ التوسل في عرف الصحابة ولغتهم هو التوسل والتوجه بدعائه وشفاعته.

ومما هو جدير بالذكر أن خلافاً قد وقع في هذا التوسل، فأجازه أحمد بن حنبل في إحدى الروايتين والعز بن عبد السلام والشوكاني، ولكن جمهور أهل العلم على رده.

## التوسل المشروع:

وإذا كان التوسل بالجاه أو الذات ليس بمشروع كما سبق، فإن من التوسل ما هو مشروع بلا نـزاع، وهو ما يلي:

ـ **الأول**: التوسل إلى الله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وهو مشروع بالإجماع.

ـ قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ﴾ [ الأعراف: ١٨٠ ] ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [ النمل: ٢٠ ] .

وقد كان من أدعيته ﷺ قوله: (( يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث )) ، وقوله: (( أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، جل وجهك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك )).

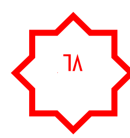
ـ **الثاني**: التوسل إلى الله جل وعلا بدعاء الأحياء الصالحين من عباده، قال تعالى مخبرًا عن أبناء يعقوب: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [ يوسف: ٩٧ - ٩٨ ] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [ النساء: ٦٤ ] .

وقد طلب بعض الصحابة من النبي ﷺ حينما تأخر عنهم المطر أن يستسقي لهم فسأل ﷺ ربه فاستجاب له.

ـ **الثالث**: التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، وهو مشروع بإجماع المسلمين، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [ المائدة: ٣٥ ] .

ومنه ما كان في قصة أصحاب الغار الذين توسلوا إلى الله جل وعلا بصالح أعمالهم ففرج الله عنهم، ومنه كذلك التوسل إلى الله جل وعلا بحب النبي - ﷺ - واتباعه لأنه من جنس التوسل بالعمل الصالح، بل إن محبة الله ورسوله أصل دين الإسلام، والأساس الذي تبنى عليه سائر الأعمال الصالحات.

وقد خلط بعض الناس بين التوسل والاستغاثة، فزعموا أن الاستغاثة بمعنى التوسل، وأن قول القائل في دعائه: أستغيث برسولك عندك، كقوله: أتوسل إليك برسولك، وأن هذا كله يعد استغاثة



بالرسول ﷺ في لغة العرب وجميع الأمم ! وإذا كانت الاستغاثة كالتوسل فالأمر فيها قريب، وفي المنع منها خلاف !

وهذا تلبيس واضح، فلم يقل أحد: إن التوسل بالنبي أو بالصالح هو استغاثة به فالمستغيث بالنبي أو بالولي طالب منه وسائل له، أما المتوسل بهما فإنه لا يدعوهما ولا يطلب منهما وإنما يطلب بهما، وفرق بين المدعو والمدعو به. وعلى هذا فقول القائل: إن من توسل إلى الله بنبي فقد استغاث بذلك النبي حقيقة في لغة العرب وجميع الأمم. كذب وبهتان، فما يعرف هذا في لغة أحد من بني آدم إلا على سبيل التجوز، ولكن الجميع يعلمون أن المستغاث مسئول مدعو، ويفرقون بين المسئول والمسئول به.

فإذا ثبت عن معين أنه قصد باستغاثته بالنبي ﷺ أو الولي مجرد التوسل بهما إلى الله عز وجل، كما قد يقع ذلك أحيانًا من العامة، فلابد أن يبين له الفرق بينهما ولا يصار إلى تكفيره بمجرد ذلك لتخلف قصده إلى الشرك، وغاية القول فيه وفي أضرابه أنه من جهال أهل البدع وعوامهم، وأنه يجب أن تقام عليه الحجة الرسالية التي ترفع الجهالة وتزيل الالتباس.

## ثالثًا: الاستعاذة :

**الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام. فالعائذ بالله قد التجأ إلى الله والتصق بجنابه، واعتصم به من شر كل ذي شر، والعياذ يكون لدفع الشر، واللياذ لطلب الخير، والاستعاذة بالله من العبادات التي أمر الله بها عباده.**

**قال تعالى:** ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦] .
**وقال تعالى:** ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] , **وقال تعالى:** ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق: ١-٢] .

**وعلى هذا فمن استعاذ بغير الله فقد أشرك في عبادة ربه ونازعه في ألوهيته؛ لأن كل ما كان عبادة لله كان صرفه لغير الله شركًا في العبادة.**

وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق، وكان هذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه ثبت عن النبي - ﷺ - أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك.

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦].

فالاستعاذة بالله من العبادات التي أمر الله بها في كثير من الآيات، فمن صرف شيئًا منها لغير الله فقد جعله شريكًا لله في عبادته، وقد كان الرجل من العرب إذا نزل واديًا مقفرًا للمبيت فيه، وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه - يريد كبير الجن-، فتعاظم الجن في

أنفسهم لما رأوا من استعاذة الإنس بهم وزادوهم رهقًا - أي خوفًا وإرهابًا وذعرًا - حتى تشتد مخافتهم منهم ويكثر تعوذهم بهم.

# ثالثاً: الخوف والمحبة

## أولاً: الخوف:

الخوف من الله من أفضل مقامات الدين وأجلها، وهو من أجمع أنواع العبادة التي أمر الله جل وعلا بإخلاصها له.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] .

وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [المائدة: ٤٤] .

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].

وقد أثنى الله جل وعلا على الملائكة فقال: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [ النحل: ٥٠ ].

ووعد سبحانه من حقق مقام الخوف منه بجنتين، فقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [ الرحمن: ٤٦ ].

وبيّن أن من خافه في الدنيا أمنه في الآخرة ووقاه عذابها، فقال تعالى حاكيًا عن عباده الصالحين:

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [ الإنسان: ١٠-١١ ]، وقال تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾[ الطور: ٢٦-٢٧ ] .

وأخرج البخاري في صحيحه عن حذيفة عن النبي -ﷺ- قال: (( كان رجل ممن كان قبلكم يسيء الظن بعمله، فقال لأهله: إذا أنا مت فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف، ففعلوا به فجمعه الله ثم قال: ما حملك على الذي صنعت ؟! قال ما حملني عليه إلا مخافتك، فغفر له)) فهذا الرجل حمله خوفه من الله وجهله بعموم قدرة الله على أن أوصى أولاده بما ذكر فرحمه الله وغفر له!

## أقسام الخوف :

وينقسم الخوف إلى ثلاثة أقسام:

(١) **خوف السر أو الخشية بالغيب**، وهذا عبودية القلب، بل هو أجمع أنواع العبادة، فيجب إخلاصه لله تعالى، فإذا صرف لغير الله تعالى فذلك هو الشرك، كمن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره، كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام أنهم قالوا له:

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥] ، وكما خوف المشركون نبينا ﷺ بطواغيتهم فقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [ الزمر: ٣٦ ] .

وكما يقع من القبوريين حيث يخشون أولياءهم كخشية الله أو أشد خشية ويخوفون بهم أهل التوحيد إن هم أنكروا عليهم ما هم فيه من شرك وضلال.

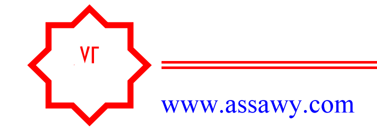
(٢) ترك بعض الواجبات خوفًا من الناس، وهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد؛ قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] .

فهو يخوف المؤمنين بجنده لئلا يجاهدوهم ولا يأمروهم بمعروف ولا ينهوهم عن منكر، وقد نهى الله عن هذا الخوف، فكلما قوي إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم، فدلت الآية على أن إخلاص الخوف من شروط كمال الإيمان.

(٣) **الخوف الطبيعي**، وهو الخوف من سبع أو عدو أو غير ذلك، وهذا لا يذم قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص: ٢١] . وقال تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٧].

وهذا أمر جبلّي يتفاوت الناس فيه، ولكنه ليس من باب الشرك في شيء، وقد سئل النبي ﷺ : أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: (( نعم )) [رواه مالك في الموطأ، وهو حديث مرسل] .



## ثانياً: المحبة :

**العبادة:** هي كمال المحبة وكمال الخضوع، فمحبته عز وجل بتأله وذلة هي أصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاه، وهذه تستلزم الخوف والتعظيم والإجلال، وهي على هذا النحو لا تصلح إلا لله تعالى، فمن أحب من دونه شيئا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دونه أندادًا. قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند بخلاف ند المحبة فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم، والمقصود أن محبتهم لأندادهم من جنس محبة المؤمنين لربهم، فهي محبة ممتزجة بالذل والتعظيم والتقديس، فتحملهم على عبادتهم بالدعاء وغيره من أنواع العبادة، وهذه المحبة الشركية وهي المحبة مع الله تختلف عن المحبة في الله.

- فالمحبة في الله ليس فيها شيء من شوائب الشرك، كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب أو دفع مرهوب، وهي واجبة تابعة لمحبة الله ولازمة لها، وهي تزداد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها، فكل من كان محبًا لله فإنما يحب في الله ولأجله عباده الصالحين وعلى رأسهم سيد المرسلين، كما يحب الإيمان والأعمال الصالحات ويكره الفواحش والمنكرات، وهذه المحبة من كمال التوحيد.

- أما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية لما فيها من التأله لغير الله، والتعلق به، والرغبة إليه من دون الله، وهي التي عناها الله عز وجل بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

وإنما كانت شركًا لما يتعلق في قلوب أصحابها من التأله الذي لا يكون إلا لله، فهي تتضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار:

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨].



مع إقرارهم بأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة.

وهذا هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله، بل إن أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده، ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحدٌ ربَّ العالمين، وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث الحرب، وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئًا رضوا عنه ولم تتنكر له قلوبهم، بل ترى أحدهم يتخذ من ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ديدنًا له إن قام وإن قعد وإن عثر وإن مرض وإن استوحش، فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه، وهو لا ينكر ذلك، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده، ووسيلته إليه، وهكذا كان عباد الأصنام سواء بسواء، وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون من بعدهم بحسب اختلاف آلهتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

- **أما ما كان من جنس المحبة الطبيعية**، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة المال والولد ونحوه، فهي ليست من هذه الأبواب، وإنما تدخل في نطاق المباحات، ما لم تستلزم ترك واجب أو جرأة على معصية.

# رابعاً: النذر والذبح

## أولاً: النـذر.

الوفاء بالنذر عبادة من العبادات، ولهذا جاء الأمر به في مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٩] ، وقد مدح الله من فعل ذلك طاعة له وقياماً بما تقرب إليه فقال تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧] .

وقد أمر رسول الله ﷺ بالوفاء بالنذر إذا كان نذر طاعة، وعلى ذلك أجمع العلماء، إلا ما حكي عن أبي حنيفة أنه لا يلزم الوفاء إلا بما كان جنسه واجبًا بأصل الشرع كالصوم، وأما ما ليس كذلك كالاعتكاف فلا يجب عليه الوفاء به.

وقال ﷺ : (( من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)) [ رواه البخاري ] .

٭ ولما كان النذر عبادة لأنه يجب الوفاء به إذا نذره لله، فإن النذر لغير الله كهذه النذور الواقعة من القبوريين تقربًا بها للأولياء لقضاء حوائجهم والشفاعة لهم.

- شرك في العبادة بلا ريب، لما يتضمنه من تعظيم المنذور له والتقرب إليه بذلك، ولأن الوفاء به له عبادة، والعبادة يجب أن تكون لله وحده، وهو نذر معصية باتفاق المسلمين ولا يجب الوفاء به لأنه بمنزلة الحلف بالمخلوقات، والحلف بالمخلوقات والنذر لها كلاهما شرك، والشرك ليس له حرمة فلا يجب الوفاء بشيء من ذلك.

أما الناذر لله فقد علق رغبته به وحده، لعلمه بأن ما شاء الله كان وما لم يشألم يكن، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله، بخلاف الذي نذر لغيره تعالى فقد علق رغبته بغيره عز وجل، ووزع قصده بين الله وبين شركائه الذين زعمهم، ومن هنا كان الشرك لالتفاته إلى غيره تعالى فيما يرغب فيه أو يرهب، فالعبادة إذا صرفت لغير الله صار ذلك شركًا بالله.

**والنذر لغير الله باطل من وجوه كثيرة منها:**

- أنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

- ومنها أن المنذور له ميت، والميت لا يملك شيئًا.

- ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور، وأن له تأثيرًا حقيقيًا في قضاء حاجته وإلا لما نذر له، واعتقاد ذلك كفر.

- ومنها أنه يخاف بطش الميت ونقمته إذا لم يوف بنذره، فهو إذن قد اعتقد قدرته على النفع في البداية، وقدرته على الإضرار - عند عدم الوفاء - في النهاية، والشرك في ذلك ظاهر.

يقول ابن قدامة: ( لا يصح نذر الشمع والزيت وأشباهه للأماكن التي فيها قبور، فقد لعن النبي - ﷺ- المتخذين عليها المساجد والسرج ) [ المغني لابن قدامة: ٢/٣٨٣] .

وجاء في الدر المختار: ( واعلم أن النذر الذي يقع للأموات من أكثر العوام وما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ونحوها إلى ضرائح الأولياء الكرام تقربًا إليهم فهو بالإجماع باطل وحرام ما لم يقصدوا صرفها لفقراء الأنام، وقد ابتلي الناس بذلك ولاسيما في هذه الأعصار، وقد بسطه العلامة قاسم في شرح درر البحار، ولقد قال الإمام محمد: لو كانت العوام عبيدي لأعتقتهم وأسقطت ولائي وذلك لأنهم لا يهتدون، فالكل بهم يتعيرون ) [ حاشية ابن عابدين: ٢ / ٤٣٩ - ٤٤٠ ] .

وعلق ابن عابدين على ذلك في الحاشية فقال: ( ولا يخفى على ذوي الأفهام أن مراد الإمام بهذا الكلام إنما هو ذم العوام، والتباعد عن نسبتهم إليه بأي وجه يرام، ولو بإسقاط الولاء الثابت الانبرام، وذلك بسبب جهلهم العام، وتغييرهم لكثير من الأحكام، وتقربهم بما هو باطل وحرام، فهم كالأنعام يتعير بهم الأعلام، ويتبرءون من شنائعهم العظام، كما هو أدب الأنبياء الكرام، حيث يتبرءون من الأباعد والأرحام؛ بمخالفتهم الملك العلام، فافهم ما ذكرناه والسلام ) [حاشية ابن عابدين: ٢/٤٤٠] . وعقد ابن عابدين في حاشيته مطلبًا في بيان بطلان النذر الذي يقع للأموات من أكثر العوام من ذهب أو فضة أو طعام أو شمع ونحوه، وبيّن انعقاد الإجماع على حرمته وأنه لا ينعقد ولا تشتغل الذمة به وأنه حرام وسحت.

ومما يحسن التنبيه عليه في هذا المقام ما شاع على ألسنة العوام في باب النذر للأولياء من قولهم: النذر لله والثواب للشيخ، يتعللون بذلك في دفع وصمة الشرك عن هذه النذور.

والذي لا شك فيه أن الشريعة قد أجازت أن يتصدق الرجل عن غيره، ففي دعاء الأحياء وصدقتهم منفعة للأموات، ولكن واقع هؤلاء يبطل هذا التعلق، فهي ليست صدقة بريئة مجردة عن الدوافع البدعية التي تقدح في توحيد الألوهية وإفراد الله بالعبادة، فالقوم يقدمون هذه الصدقة بين يدي أمر ألَمَّ بهم يريدون وساطة الولي في دفعه، وهم يخشون إن نكثوا في نذرهم أن تحل عليهم نقمة هذا الولي وسخطه، وهذا هو نفس المعنى الذي وجد في النذور الشركية الأولى التي كانت للأصنام في أيام الجاهلية.

نعم، لابد أن يؤخذ هذا التأول في الاعتبار عند إجراء الحكم على معين منهم، فتزال شبهه أولاً وتقام عليه الحجة الرسالية التي يكفر معاندها، شريطة أن يقوم بذلك من تقوم بمثله الحجة، وينقطع ببلاغه العذر.

## ثانيًا: الذبح:

**الذبح شعيرة من الشعائر وعبادة من العبادات. قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٣].**

**فقد أمر الله نبيه ﷺ أن يجمع بين هاتين العبادتين وهما الصلاة والنسك، فإنهما أجل ما يتقرب به إليه عز وجل، فالصلاة أجل العبادات البدنية، والنحر أجل العبادات المالية، ولهذا كان ﷺ كثير الصلاة كثير النحر، وقد كان المشركون يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمره تعالى بمخالفتهم والتوجه بعبادته إلى الله وحده.**

**وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢] .**

**فقد أمر الله نبيه ﷺ أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له، بأنه أخلص لله صلاته ونسكه ومحياه ومماته. والنسك: الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه. فقد كان المشركون يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والتوجه إلى الله بأعماله كلها.**

وقد عقد مسلم في صحيحه بابًا لتحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، وروى فيه حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: (( لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من غير منار الأرض ))

والذبح لغير الله هو الذبح لمن مات من الأنبياء والأولياء رجاء بركتهم، والذبح للجن إرضاء لهم ورجاء قضائهم للحاجات أو دفعًا لشرهم، وكل ذلك شرك أكبر يستحق فاعله لعنة الله وغضبه.

وعلى هذا فمن ذبح لغير الله فقد جعل لله شريكًا في العبادة، بخلاف من ذبح لله عز وجل تصدقًا عن ميت، فلا خلاف على جواز ذلك إذا لم يقترن به اعتقاد فاسد.

## صور الذبح:

وفي الذبح صور عديدة نوجزها فيما يلي:

- أن يذبح لغير الله تقربًا إليه وتعظيمًا له، وهذا باب من أبواب الردة يخرج به صاحبه عن الإسلام.

- أن يُهِلَّ على ذبيحته بغير اسم الله، أي أن يذكر عليها اسمًا غير اسمه تعالى من غير أن يقصد بها التقرب لأحد؛ كأن يذبحها مثلاً، فلا شك في حرمة هذه الصورة، بل وقد تلتحق بالصورة الأولى باعتبارها استغاثة بغير الله.

١- أن يذبح تقربًا إلى الله عز وجل، ذاكرًا اسمه عليها، على أن يكون صدقة عن ميت من الأموات برًا به ووفاءً له وترحمًا عليه، فإن هذه الصورة إذا لم يشبها اعتقاد فاسد في هذا الميت فلا شك في حلها، بل والتحاقها بأبواب القربات.

- أن يذبح لمحض التقرب إلى الله عز وجل، كالأضحية والهدي وغيره، فذلك لا شك في مشروعيته واعتباره من أجل العبادات.

١- أن يذبح من أجل اللحم بعد ذكر اسم الله تعالى، فذلك يلتحق بالمباحات، فإذا ترك التسمية عمدًا أو سهوًا فالأمر محل خلاف فقهي يرجع فيه إلى كتب الفروع.

قال النووي: وأما الذبح لغير الله، فالمراد به أن يذبح لغير اسم الله ؛ كمن يذبح للصنم أو للصليب أو لعيسى أو للكعبة ونحو ذلك، فكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة، سواء كان هذا الذابح مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا. نص عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا. فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له كان ذلك كفرًا. فإن كان الذابح مسلمًا قبل ذلك صار بالذبح مرتدًا.

# خامساً: السحر والتنجيم والرقي والتمائم

## أولاً: السحر:

**تعريف السحر: السحر في اللغة:** عبارة عما لطف وخفي سببه. ولذلك قيل للرئة: السحر لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن.

**وفي الاصطلاح:** عزائم ورقى وعقد تؤثر في القلوب والأبدان، فتمرض وتقتل وتفرق بين المرء وزوجه.

من السحر ما هو حقيقة وليس مجرد تخييل: وقد أنكر المعتزلة وجود السحر، وربما كفَّروا من اعتقد وجوده، فلم يثبتوا له حقيقة بل قالوا: إنه تمويه وتخييل. وأما عند أهل السنة فالسحر حق وله حقيقة، يخلق الله عنده ما يشاء، فلا يرجع تأثيره إلى الفلك أو النجوم، وإنما يخلق الله الأشياء عندما يقول الساحر ما لديه من رقى وتعازيم. ومما استدل به أهل السنة على وقوع السحر وأنه بخلق الله عز وجل:

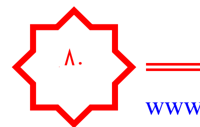
- قوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٠٢] .
- وقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤].

يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن. ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه.

- وما رواه البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ سُحر، حتى أنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، وأنه قال لها ذات يوم: (( أتاني ملكان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال: ما وجع الرجل ؟ قال: مطبوب. قال: ومَن طَبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم في مشط ومشاطة، وفي جف طلعة ذكر في بئر ذي أروان )) [ متفق عليه ] .

**حكم السحر:** والسحر محرم بالإجماع ليس في دين الإسلام فحسب بل في دين الرسل جميعًا.

- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة:١٠٢] .



أي ولقد علم اليهود الذين استعاضوا عن متابعة الرسول بالسحر لمن فعل فعلهم ذلك أنه ما لـه في الآخرة من نصيب.

- وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩] .

- وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه قال ﷺ : (( اجتنبوا السبع الموبقات )) وعد منها الشرك بالله والسحر.

**حكم الساحر:** لا خلاف بين أهل العلم على أن الساحر إذا أتى في سحره بمكفر قتل لردته حدًا، ولا خلاف أيضا في أنه لو قتل بسحره نفسا معصومة قتل قصاصًا، وإنما وقع الخلاف فيما إذا لم يأت في سحره بمكفر ولم يقتل نفسًا:

- فذهب طائفة من السلف إلى القول بأنه كافر، وأنه يقتل حدا لردته، وبه قال مالك وأحمد وأبو حنيفة.

- وقال الشافعي رحمه الله: إذا تعلم السحر قلنا له: صِفْ لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة أو أنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر.

- وفصّل بعض أصحاب أبي حنيفة بين من يتعلم السحر ليتقيه أو ليتجنبه فهذا لا يكفر، وبين من يتعلمه معتقدًا جوازه أو أنه ينفعه، أو أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر.

## من أنواع السحر:

### السحر أنواع عديدة:

- فمنه ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم بما يسخط الله عز وجل، وذلك ككتابة كلام الله بالنجاسة من دم وغيره، أو يقلبون حروف كلامه عز وجل، أو غير ذلك مما هو من جنس الكفر أو الشرك، هذا فضلاً عن تعظيمهم والاستغاثة بهم والتذلل لهم، فإذا تقرب صاحب العزائم والأقسام وكتب الروحانيات السحرية وأمثال ذلك إليهم بما يحبونه من الكفر والشرك، صار

ذلك كالرشوة لهم فيقضون بعض أغراضه، كمن يعطي غيره مالاً ليقتل له من يريد قتله أو يعينه على فاحشة أو ينال معه فاحشة ! فربما غوَّروا له ماء من المياه، أو حملوه في الهواء إلى بعض الأمكنة، أو جاءوه بمال من أموال بعض الناس، كما تسرقه الشياطين من أموال بعض الخائنين ومن لم يذكر اسم الله عليه وتأتي به، أو غير ذلك.

ـ ومنه ما هو من جنس عبادة الفلك والنجوم والكواكب، وذلك كسحر من كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهي السيارة، وكانوا يعتقدون أنها مدبرة للعالم وأنها تأتي بالخير والشر فيخاطبونها ويستنزِلون روحانياتها بزعمهم، وقد يجمع بعضهم بين الأمرين: الاستعانة بالشياطين ومخاطبة الكواكب، فيكون ذلك أقوى بزعمهم.

**فحقيقة السحر:** تعلق بغير الله استعانة ولياذًا وتضرعًا وتقربًا وقصدًا، فهو إما من جنس عبادة الشياطين أو من جنس عبادة الكواكب، وكلاهما إشراك بالله وكفر به ولا أظن خلافًا وقع في هذا القدر.

**أما إذا أطلق السحر:** على نحو التميمة أو الشعوذة وخفة اليد، أو الاستعانة بخواص الأدوية في الأطعمة والدهانات أو الحيل ونحوه، فلا يدخل شيء من هذا في باب الكفر والشرك، وإنما يلتحق بالفجور والمعاصي لما يتضمنه من زور وكذب وخداع.

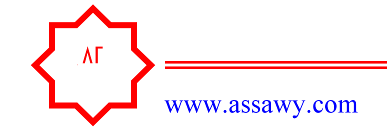
ـ وقد يطلق على الفصاحة وقوة البيان، فإن من البيان لسحرًا، فإن استعمل في إظهار الحق وإبطال الباطل فهو مشروع محمود، وإن استعمل في التمويه على الناس وقلب الحقائق فهو ممنوع ومذموم، وقد يبلغ درجة الكفر.

## النُّشْرة:

**النشرة:** ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من يظن أن به مسًا من الجن، فهو حل السحر عن المسحور.

**وسميت نشرة لأنه ينشر عنه بها ما خامره من الداء، أي يكشف ويزال. وهي نوعان:**

★ **الأول:** النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة. وهذه جائزة باتفاق.



★ **الثاني: النشرة بالسحر، وفيها وقع الخلاف.**

**فذهبت طائفة إلى جوازها، منهم سعيد بن المسيب، والشعبي وغيرهم.**

**فقد روى البخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طِبٌّ أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر ؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه. وقال الشعبي: لا بأس بالنشرة. وقد سئل أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور فقال: لا بأس به. وإن كان قوله هذا يمكن أن يحمل على النشرة بالأدعية والأدوية المباحة.**

★ **ومنعها آخرون كابن مسعود وجابر وأحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم وغيرهم.**

**فعن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة ؟ فقال: (( هي من عمل الشيطان ))[1]. وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ : (( ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له ))** [ رواه الطبراني، وقال المناوي: إسناده جيد ] **، وقد سئل عنها أحمد بن حنبل فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.**

**وقال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن: فيتقرب الناشر إلى الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور. والذي أراه أن هذه النشرة هي من جنس السحر، فالقول فيها هو القول في السحر، وفي الاستشفاء بما شرعه الله ورسوله ما يغني عن الشرك وأهله.**

**ذلك أن عامة ما يقوله أهل العزائم فيه شرك، ولو لم يكن فيه من ذلك إلا دعاء الجن وتعظيمهم والاستعانة بهم والتقرب إليهم لكفى.**

**والمسلمون وإن تنازعوا في جواز التداوي بالمحرمات كالميتة والخنزير، فلا يتنازعون في أن الكفر والشرك لا يجوز التداوي به بحال؛ لأن ذلك محرم في كل حال ولا وجه للاعتذار بالإكراه والضرورة في مثل هذه الحالة، وذلك لأن في الحق ما يغني عن الباطل، وفيما شرعه الله ورسوله من الأدعية الشرعية والأدوية الطبيعية كفاية، فإن الله ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله، وقد**

---

( ١) رواه أحمد (٣/٢٩٤) بسند جيد، وأبو داود (٣٨٦٨).



أمر رسول الله ﷺ بالتداوي، ونهي عن التداوي بالمحرم، فقال ﷺ (( تداووا ولا تتداووا بحرام ))[1]، وروي عنه - ﷺ - قوله (( إن الله لم يجعل شفاءكم في حرام ))[2].

ومن ناحية أخري فإن التكلم بهذه العزائم الشركية يختلف عن التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه، فالإكراه يصلح عذرًا إذا كان القلب مطمئنًا بالإيمان، ولكن التكلم بهذه العزائم لا يؤثر إلا إذا كان عن يقين واطمئنان، ولا أثر لها إذا كان القلب مطمئنًا بالإيمان، والشيطان إذا عرف أن صاحبه مستخف بالعزائم لم يساعده ولم يستجب له.

والحاصل أن ما كان من النشرة بسحر فهو حرام، وأما ما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فهو جائز بلا خلاف. والله أعلم.

## ثانيًا: التنجيم:

**التنجيم:** هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وهو قسمان: جائز ومحرم:

- فأما الجائز فهو ما كان من جنس الحساب، ويدرك بطريق المشاهدة والخبر، كمعرفة حركات النجوم والكواكب وتنقلاتها ومنازلها، وذلك للتعرف على نحو الكسوف والخسوف والزوال وجهة القبلة وما شابه ذلك. فهذا ونحوه ليس من باب علم الغيب في شيء، وإنما هو من جنس علم الحساب الذي علمه الله عباده.

وقد اخترع أهل هذه الصناعة لمعرفة ذلك منظارات مقربة وآلات حاسبة، ومراصد كاملة الأسباب والآلات، وتعرفوا من خلال ذلك على كثير من العوالم العلوية حتى أصبحت كأنها على الأرض.

ولا شك أن ما كان من هذا القبيل فلا يصح أن يختلف فيه مطلقًا؛ لأنه مما يعرف بالحساب كما سبق، وهو مما أجرى الله به العادة فلا يحرم أبدًا، فكان الإخبار عنه بمنزلة الإخبار بأن الهلال يطلع إما ليلة الثلاثين أو الليلة التي بعدها، أو أن الشمس تغرب آخر النهار وأمثال ذلك. قال تعالى:

---

(١) أبو داود (٣٨٧٤).

(٢) أبو يعلى في (المسند)، وابن حبان في صحيحه.

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ [الرحمن: ٥] .

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥] .

★ قال الخطابي: أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر، الذي يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة فهو غير داخل فيما نهى الله عنه.

★ وقال ابن رجب: والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم قليله وكثيره. وأما علم التسيير فتعلم ما يحتاج منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور، وما زاد عليه لا حاجة إليه لشغله عما هو أهم منه.

★ وقال ابن تيمية: لا ريب أن النجوم نوعان: حساب وأحكام. فأما الحساب فهو معرفة أقدار الأفلاك والكواكب وصفاتها ومقادير حركاتها وما يتبع ذلك، فهذا في الأصل علم صحيح لا ريب فيه كمعرفة الأرض وصفتها ونحو ذلك، ولكن جمهور التدقيق منه كثير التعب قليل الفائدة(١) .

★ وقال أيضًا وهو بصدد حديثه عن الكسوف والخسوف: وما أخبر به النبي -ﷺ- لا ينافي لكون الكسوف له وقت محدد يكون فيه، حيث لا يكون كسوف الشمس إلا في آخر الشهر ليلة السرار، ولا يكون خسوف القمر إلا في وسط الشهر وليالي الإدبار. ومن ادعي خلاف ذلك من المتفقهة أو العامة فلعدم علمه بالحساب، ولهذا يمكن المعرفة بما مضى من الكسوف وما يستقبل، كما يمكن المعرفة بما مضى من الأهلة وما يستقبل إذ كل ذلك بحساب، قال تعالى:

﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا ﴾ [الأنعام: ٩٦] ، وقال تعالى: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ (٢) [الرحمن: ٥].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٥/١٨١، ١٧٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٥/١٨١، ١٧٥.

**وأما المحرم فهو قسمان:**

**الأول:** الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث المستقبلة، وهو ما يدعيه أهل التنجيم من الاستدلال على الحوادث بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها، وهذا من جنس الاستقسام بالأزلام، فهو تحكم على الغيب وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا شك في فساد هذه الصناعة وحرمتها.

وقد علم الخاصة والعامة بالتجربة والتواتر أن الأحكام التي يحكم بها المنجمون يكون الكذب فيها أضعاف الصدق، فصدقهم كصدق الكهان، يصدقون في كلمة ويكذبون في مائة، وذلك أن مبنى علمهم أن الحركات العلوية هي السبب في الحوادث، والعلم بالسبب يوجب العلم بالمسبب، وهذا إنما يكون إذا علم السبب التام الذي لا يتخلف عنه حكمه، وهؤلاء - إن علموا - لا يعلمون إلا جزءًا يسيرًا من جملة الأسباب الكثيرة، ولا يعلمون بقية الأسباب ولا الشروط ولا الموانع، وذلك مثل من يعلم أن الشمس في الصيف تعلو الرأس حتى يشتد الحر، فيريد أن يعلم من هذا مثلاً أن العنب الذي بأرض كذا يصير زبيبًا، وهذا وإن كان يقع أحيانًا ولكن أخذه من مجرد حرارة الشمس جهل عظيم، إذ قد يكون هناك عنب وقد لا يكون، وقد يثمر شجره أو لا يثمر، وقد يؤكل عنها وقد يعصر وقد يسرق، وكل ذلك وارد!

وقد أراد المنجمون أن يمنعوا عليًا - رضي الله عنه - من السفر لقتال الخوارج قائلين له: إنك إن سافرت والقمر في العقرب هزم أصحابك! فقال علي: بل أسافر ثقة بالله وتوكلاً على الله، فبورك له في سفره هذا، وكتب له فيه النصر والغلبة.

قال الخطابي: علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وتغير الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثيرًا في السفليات وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا يعلم الغيب سواه.

وقال ابن تيمية: والسحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع، وذلك أن النجوم التي من السحر نوعان: أحدهما علمي، وهو الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث من جنس الاستقسام بالأزلام... إلى أن قال: والدلالة الدالة على فساد هذه الصناعة وتحريمها كثيرة وليس هذا موضعها، وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي - ﷺ - أنه قال: (( من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا )).
والعراف قد قيل: إنه اسم عام للكاهن والمنجم والرمّال ونحوهم ممن يتكلم في تقدم المعرفة بهذه

الطرق. ولو قيل: إنه في اللغة اسم لبعض هذه الأنواع فسائرها يدخل فيه بطريق العموم المعنوي، كما قيل في اسم الخمر والميسر ونحوهما[1].

الثاني: القول بتأثير الكواكب في الأمور، وأن الحوادث مركبة على تأثيرها. ولا شك أن هذا كفر بإجماع المسلمين، فإذا انضم إلى ذلك دعاؤها والاستعانة بها فقد بلغ الكفر غايته ومنتهاه.

قال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يُهتدى بها، وجعلها رجومًا للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. وإن ناسًا جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا ويولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم، وما عِلم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب ؟! ولو أن أحدًا أعلم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء[2].

وقال ابن تيمية: واعتقاد المعتقد أن نجمًا من النجوم السبعة هو المتولي لسعده ونحسه اعتقاد فاسد وإن اعتقد أنه هو المدبر له فهو كافر، وكذلك إذا انضم إلى ذلك دعاؤه والاستعانة به كان كفرًا وشركًا محضًا[3].

## ثالثًا: الرقى والتمائم:

### الرقي: جمع رقية وهي التي تسمي العزائم. وتنقسم قسمين:

**- رقية مشروعة: وهي ما كانت بالقرآن أو بأسماء الله وصفاته. رقية ممنوعة: وهي ما استعين فيها بغير الله، أو كانت بغير اللسان العربي.**

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٥/ ١٧١ – ١٧٣.

(٢) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والخطيب في كتاب النجوم وهذا لفظه.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧٧/٣٥.

- ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا يا رسول الله: كيف ترى في ذلك ؟ فقال: (( أعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا ))[1].

- وفي الصحيحين حديث رقيا سيد الحي بالفاتحة وإقرار النبي ﷺ لذلك[2].

- وقد سئل النبي ﷺ عن الرقى فقال: (( من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل ))[3] .

قال الخطابي: وكان - عليه السلام- قد رَقى ورُقي، وأمر بها وأجازها، فإذا كانت بالقرآن أو بأسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان فيها بغير لسان العرب فإنه ربما كان كفرًا أو قولاً يدخله شرك.

وقال ابن تيمية: كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقي به فضلاً عن أن يدعو به ولو عرف معناه؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعارًا فليس من دين الإسلام.

وقال في موضع آخر وهو يتحدث عن رقية المصروع: وأما الاستعانة عليهم بما يقال ويكتب مما لا يعرف معناه فلا يشرع، لاسيما إن كان فيه شرك فإن ذلك محرم[4].

وقال السيوطي: قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي وما يعرف معناه، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى.

وعلى هذا فتحمل الرقى في قوله- ﷺ -: (( إن الرقى والتمائم والتوَلة شرك ))[5] على الرقى الشركية التي يستعان فيها بغير الله.

---

(١) رواه مسلم ٤/١٧٢٧ حديث ٦٤ باختلاف في اللفظ.

(٢) فتح الباري ١٠/٢٠٩.

(٣) رواه مسلم ٤/١٧٢٦، ١٧٢٧ حديث ٦١، ٦٣.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٩/١٦.

(٥) رواه أبو داود ٤/٢١٢ بإسناد حسن، حديث رقم ٣٨٨٣.

ولا بأس أن يكتب شيء من القرآن أو الذكر في إناء أو لوح بالمداد المباح ثم يمحى بالماء أو غيره، ويسقى للمصاب وغيره من المرضي؛ نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، ونقله عن أحمد وابن عباس وغيرهم من العلماء[1].

**أما التمائم:** فهي جمع تميمة، وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام ونحوه لدفع العين. وقد ورد النهي عنها وتسميتها شركًا لأنه لا يدفع السوء إلا الله، فهي لا ترد من أمر الله شيئًا. وعجيب أمر قوم يتلمسون الوقاية ودفع الأذى في حجارة أو عظام، وفي حدوة حمار أو حصان!

- عن ابن مسعود - رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (( إن الرقى والتمائم والتولة شرك )). رواه أحمد وأبو داود. والتولة: شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها.

- وفي الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فأرسل رسولاً: « أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت ». وقد كانوا يقلدون الإبل بالأوتار لئلا تصيبها العين، فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها إعلامًا لهم أن الأوتار لا ترد شيئًا.

- وروى أحمد عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟ فقال: (( إن عليه تميمة ))فأدخل يده فقطعها فبايعه وقال: (( من تعلق تميمة فقد أشرك )) ورواه الحاكم بنحوه ورواته ثقات.

وإنما كانت هذه الأشياء من الشرك لما فيها من التفات القلب عن الله عز وجل، وتعلقه بغيره، ولما تتضمنه من طلب دفع المضار وجلب المنافع من غيره عز وجل، ولا شك أن من تعلق بشيء وكل إليه، ومن اعتصم بمخلوق من دونه تعالى تقطعت به الأسباب، وتشردت خطاه في الأرض، ولا يبالي ربه بأي أوديتها هلك!!

- قال الإمام أحمد: حدثنا هشام بن القاسم، حدثنا أبو سعيد المؤدب، حدثنا من سمع عطاء الخرساني قال: لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت، فقلت: حدثني حديثا أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز. قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: ( يا داود، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي

---

(١) يراجع الفتاوى: ١٢/٥٩٩، ١٩/٦٤ – ٦٥.

عبد من عبادي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له من بينهن مخرجًا ! أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء من يده، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي أوديتها هلك ) !.

## هل يجوز تعليق التمائم إذا كانت من القرآن أو أسماء الله وصفاته؟

**اختلف العلماء في ذلك:**

- فقالت طائفة بجوازه، وحملوا الحديث على التمائم التي فيها شرك. وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص وظاهر ما روي عن عائشة، وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد في رواية. وقد روي أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يكتب بعض الأدعية في ألواح ويعلقها في عنق صغاره، بينما كان يحفظها لأولاده الكبار.

- ومنع منه آخرون، كابن مسعود وابن عباس، وهو قول حذيفة وعقبة بن عامر، وبه قال جماعة من التابعين منهم أصحاب ابن مسعود، وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه، وجزم بها المتأخرون، واحتجوا بالحديث السابق وما في معناه.

والذي يقتضيه النظر هو المنع من ذلك سدًا للذرائع لكونه قد يفضي إلى تعليق التمائم الشركية، بالإضافة إلى كون المعلَّق عرضة للامتهان، إذ قد يحمل في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك، فضلاً عن كون الرواية الواردة في ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص ضعيفة.

# سادساً: الحلف بغير الله

ومن الشرك أيضًا الحلف بغير الله، وهو من الشرك الأصغر، وقد يكون من الشرك الأكبر بحسب حال قائله ومقصده. فإن كان يحب المحلوف به كما يحب الله، أو يعظمه كما يعظم الله، أو يخشاه بالغيب كما يخشى الله، فإنه بهذا يكون قد وقع في الشرك الأكبر المخرج من الملة.

وكونه من الشرك الأصغر لا يبرر التساهل في شأنه، فإن الشرك الأصغر أكبر الكبائر بعد الشرك الأكبر، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا، فاليمين الغموس من الكبائر ومع ذلك فقد جعل ابن مسعود - رضي الله عنه - الشرك الأصغر أكبر منها.

وقد رأينا كثيرًا من الناس من يحلفون بالله كذبًا غير مبالين، فإذا استحْلفوا بمن يعظمونه من الموتى والأولياء تراجعوا وصدقوا خوفًا من عقاب ذلك الولي وانتقامه منهم كأن هذا الولي أعز وأقدر وأغير من الله ! تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

- عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: (( من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)) [ رواه الترمذي والحاكم ][1].

- عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (( إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت )) [ متفق عليه ] .

- وعن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (( من حلف بالأمانة فليس منا ))[2].

- وعن ابن عمر أنه سمع رجلاً يقول: لا والكعبة. فقال ابن عمر: لا تحلف بغير الله ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (( من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك ))[3].

---

( ١) الترمذي في الأيمان باب ٨ حديث ١٥٣٥، وقال: حديث حسن ٤/ ١١٠.

( ٢) أبو داود في الأيمان باب ٦ حديث ٣٢٥٣ وإسناده صحيح ٣/ ٥٧١.

( ٣) الترمذي في الأيمان باب ٨ حديث ١٥٣٥، وقال: حديث حسن ٤/ ١١٠.

## هل يجوز الحلف بالنبي ﷺ ؟

وقد تنازع الناس في جواز الحلف بالنبي ﷺ مع اتفاقهم بأنه لا يحلف بشيء من المخلوقات المعظمة كالعرش والكرسي والكعبة والملائكة.

- فذهب جمهور العلماء كمالك والشافعي وأبي حنيفة، وأحمد في أحد قوليه، إلى أنه لا يحلف بالنبي ﷺ كما لا يحلف بشيء من المخلوقات، ولا تجب الكفارة على من حلف بشيء من ذلك وحنث.

- وذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه أنه يحلف بالنبي ﷺ خاصة لأنه يجب الإيمان به خصوصًا، ويجب ذكره في الشهادتين والأذان، فللإيمان به اختصاص لا يشركه فيه غيره.

والصواب هو ما عليه عامة المسلمين سلفهم وخلفهم، أنه لا يحلف بمخلوق لا نبي ولا غير نبي، ولا ملك من الملائكة، ولا ملك من الملوك، ولا شيخ من الشيوخ؛ وذلك لعموم الأدلة التي تنهى عن الحلف بغير الله.

## هل يجوز الحلف بالمصحف؟

يجوز الحلف بالله أو بصفة من صفاته، والقرآن كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته، فيجوز الحلف به، وعلى هذا فإذا كان قصد الرجل المذكور الحلف بكلام الله فهذا جائز، وإذا كان قصده الحلف بورق المصحف والمداد الذي كتب به فهذا لا يجوز لأن الورق والمداد من المخلوقات، ولا يجوز الحلف بالمخلوق لقوله ﷺ: (( من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت )).

# خلاصة الوحدة الخامسة

**توحيد القصد والتأله:**

**هو إفراد العبادة لله بالتأله والتنسك والتوجه إليه وحده بسائر أنواع العبادات القولية والعملية، كالحب والتعظيم، والرغبة والرهبة، والإنابة والرجاء والتوكل والدعاء، والاستغاثة، والذبح والنذر، والركوع والسجود، وغيرها.**

**- الدعاء نوعان: دعاء مسألة ودعاء عبادة.**

**فدعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، وهو متضمن لدعاء العبادة.**

**دعاء العبادة: هو سائر القربات من ذكر وتلاوة وصلاة ونسك، وهو يستلزم دعاء المسألة.**

**- أما الاستغاثة: فهي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة، ولا تكون إلا من المكروب، بخلاف الدعاء فإنه أعم من ذلك، فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة. والاستغاثة لا تطلب من المخلوق إلا فيما يقدر عليه، أما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يطلب إلا من الله.**

**- مراتب الأدعية البدعية ثلاث:**

**الأولى: دعاء غير الله من الموتى أو الغائبين فهذا هو الشرك بالله.**

**والثانية: طلب الدعاء من الميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين وهذا من البدع، وبعض العلماء ألحقه بالشرك.**

**الثالثة: دعاء الله تعالى متوسلاً بذات أحد من الصالحين أو بجاهه، وهو من البدع المحدثة عند الجمهور.**

**- التوسل المشروع أقسام:**

**الأول: التوسل إلى الله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.**

**الثاني:** التوسل إلى الله جلا وعلا بالأعمال الصالحات.

**الثالث:** التوسل إلى الله جل وعلا بطلب الدعاء من الأحياء الصالحين.

- وقد خلط بعض الناس بين التوسل والاستغاثة وهذا تلبيس واضح.

- **الاستعاذة:** هي الالتجاء والاعتصام، وهي من العبادات التي أمر الله بها عباده وعلى هذا فمن استعاذ بغير الله فقد أشرك؛ لأن كل ما كان عبادة لله كان صرفه لغير الله شركًا في العبادة.

- الخوف من الله من أفضل مقامات الدين وأجلها، وهو من أجمع أنواع العبادة التي أمر الله جل وعلا بإخلاصها له.

**الخوف ثلاثة أقسام:**

١- خوف السر أو الخشية بالغيب، ويجب إخلاصه لله تعالى، فإذا صرف لغيره فذلك هو الشرك.

٢- ترك بعض الواجبات خوفًا من الناس وهذا مجمع على حرمته.

٣- الخوف الطبيعي وهو كالخوف من سبع أو عدو وهذا لا يذم.

- محبة الله عز وجل بتأله وذلة هو أصل دين الإسلام؛ لأن العبادة هي كمال المحبة وكمال الخضوع، فمن أحب من دونه شيئًا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا.

- المحبة في الله ليس فيها شيء من شوائب الشرك بل هي واجبة، إذ أنها تابعة لمحبة الله ولازمة لها.

- أما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية لما فيها من التأله لغير الله.

- أما ما كان من جنس المحبة الطبيعية فهي ليست من هذه الأبواب.

- الوفاء بالنذر عبادة من العبادات؛ لذا فإن النذر لغير الله شرك في العبادة، لما يتضمنه من تعظيم المنذور له والتقرب إليه بذلك.

- الذبح شعيرة من الشعائر وعبادة من العبادات ولهذا كان ﷺ كثير الصلاة كثير النحر، والذبح لغير الله شرك أكبر يستحق فاعله لعنة الله وغضبه.

## السحر:

- **السحر في اللغة:** عبارة عما لطف وخفي سببه.

- **وفي الاصطلاح:** عزائم ورقى وعقد تؤثر في القلوب والأبدان.

- **وهو عند أهل السنة:** حق وله حقيقة، يخلق الله عنده ما يشاء.

والسحر محرم بالإجماع ليس في دين الإسلام فحسب بل في دين الرسل جميعًا.

- **حكم الساحر:** إذا أتى في سحره بمكفر قتل لردته، ولو قتل بسحره نفسًا معصومة قتل قصاصًا.

وإذا لم يأت في سحره بمكفر ولم يقتل نفسًا: فذهب طائفة من السلف إلى القول بأنه كافر، وأنه يقتل حدًا لردته. وذهب بعضهم إلى أنه يصف سحره فإن كان كفرًا قتل، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر، ومن يتعلم السحر ليتقيه أو ليتجنبه فهذا لا يكفر.

### - أنواع السحر:

- منه ما يحصل بمعاونة الشياطين بالتقرب إليهم بما يسخط الله عز وجل.

- ومنه ما هو من جنس عبادة الفلك والنجوم والكواكب.

- أما إذا أطلق السحر على التميمة أو الشعوذة وخفة اليد فلا يدخل في باب الكفر والشرك وإنما يلتحق بالفجور والمعاصي.

- **النشرة:** هي حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

الأول: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة وهذه جائزة باتفاق.

والثاني: النشرة بالسحر، وفيها وقع الخلاف، فذهبت طائفة إلي جوازها ومنعها آخرون ( والقول بالمنع هو الصواب ).

- **التنجيم:**

هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وهو قسمان: جائز ومحرم.

- فأما الجائز فهو ما كان من جنس الحساب ويدرك بطريق المشاهدة والخبر وليس من علم الغيب في شيء.

- وأما المحرم فهو قسمان:

الأول: الاستدلال بحركات النجوم والكواكب على الحوادث المستقبلة.

والثاني: القول بتأثير الكواكب في الأمور.

- **الرقى:**

جمع رقية، وهي التي تسمى العزائم، وتنقسم إلي قسمين:

رقية مشروعة: وهي ما كان بالقرآن أو بأسماء الله وصفاته.

ورقية ممنوعة: وهي ما استعين فيها بغير الله، أو كانت بغير اللسان العربي.

- **التمائم:**

جمع تميمة، وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام ونحوه لدفع العين، وهي من أبواب الشرك.

- الحلف بغير الله من الشرك الأصغر، وقد يكون من الشرك الأكبر بحسب حال قائله ومقصده، وقد تنازع الناس في جواز الحلف بالنبي ﷺ والصواب منعه.

- ويجوز الحلف بالمصحف إذا كان قصد الحالف أن يحلف بكلام الله، ولكن إذا كان قصده الحلف بورق المصحف والمداد الذي كتب به فهذا لا يجوز.

# الوحدة السادسة

## أولاً: معنى توحيد الطاعة والانقياد

هو إفراد الله تعالى بالطاعة والانقياد، وذلك بتحكيم شرعه، والقبول التام لكل ما جاء به نبيه ﷺ، والكفر بما يتنافى مع ذلك من الأهواء البشرية والمذاهب الوضعية، فإن من تفرد بخلق هذا الإنسان تفرد بحق هدايته وتوجيه الخطاب الملزم إليه، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا واجب إلا ما أوجبه، ولا دين إلا ما شرعه.

★ قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [ يوسف: ٤٠] .

فدعا إلى إفراد الله بالحكم، وبيّن أن ذلك من إفراده تعالى بالعبادة، وأن هذا هو الدين القيم الذي لا يعلمه كثير من الناس. فليس لأحد كائنًا من كان أن يعقب على حكمه، ولا أن يشرك به في طاعته.

★ وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [ الشورى: ٢١ ].

فنعى تعالى على الذين لا يتبعون ما شرع الله لنبيه ﷺ من الدين القيم، بل يتبعون ما شرع شياطينهم وطواغيتهم من تحريم الحلال وتحليل الحرام وغيره مما كانوا قد اخترعوه في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة، وبيّن أنه لولا ما تقدم من الإنظار إلى المعاد لعوجلوا بالعقوبة، وفي الآية إشارة ظاهرة إلى أن التحليل والتحريم بغير سلطان من الله إشراك بالله.

ولقد ظل هذا المعنى بدهيًا في حس الأجيال السابقة، فلم يحفظ التاريخ خلافًا يذكر حول تفرد الله جل وعلا بالحكم وانعدام المشروعية عن كل قول أو فعل ترده النصوص الشرعية، وأن من ترك الشرع المحكم المنزّل على محمد ﷺ، وتحاكم إلى غيره ولو إلى شريعة منسوخة فإنه يكون قد حادّ الله ورسوله وخلع بذلك ربقة الإسلام من عنقه لأنه يكون بذلك قد جعل لله ندًا في الطاعة والاتباع.

ولكن غاشية الفتن المعاصرة كادت أن تطمس جلاء هذه الحقيقة الناصعة فارتاب فيها المرتابون، وأصبح الناس فيها فريقين يختصمون، ومن هنا كان لزامًا علينا أن نتناول هذه القضية بشيء من التفصيل، آملين في عودة الأمور إلى نصابها، مبتدئين في ذلك بتحرير محل النزاع.

## محل النِزاع:

لا خلاف يذكر على أن من التزم الحكم بشرائع الإسلام في الجملة، فكانت هي مرجعه الدائم الذي يرجع إليه في كل أمر، ويحتكم إليه في كل قضية، ثم زلت به القدم في موقف عارض، فحكم فيه بغير ما أنزل الله ميلاً مع الهوى لشهوة أو لقرابة أو غير ذلك فإنه لا يخرج بذلك من الملة إلا بالاستحلال أو الجحود، وأن فعله هذا يلتحق بسائر الكبائر وإن كان من أعتاها وأغلظها، وإلى هذه الصورة وأشباهها ترجع عبارات السلف: كفر دون كفر - ليس بالكفر الذي تذهبون إليه - كفر لا ينقل من الملة... إلخ هذه العبارات التي أثرت عن كثير منهم عند تفسير قوله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائده: ٤٤] .

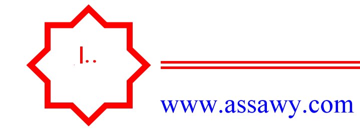
وإنما وقع الالتباس مؤخرًا في ظاهرة الامتناع عن التزام الحكم بشرائع الإسلام والتحاكم ابتداء في الدماء والأموال والأعراض إلى غير ما أنزل الله، ورد مرجعية الشريعة في علاقة الدين بالدولة، وهي الصورة التي وفدت إلى بلاد الإسلام في ركاب المستعمر، وينظر لها باسم العلمانية والفصل بين الدين والدولة، وحولها فقط سيكون حديثنا بإذن الله، وسوف نبدأ بتجلية الفرق بين الصورتين إحكامًا للأمر، وزيادة في البيان والإيضاح.

# ثانياً: الفرق بين الانحراف العارض عن الحكم بما أنزل الله وبين العلمانية

* إن الحجة القاطعة والحَكَم الأعلى في الصورة الأولى هو الله عز وجل، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، ولا سيادة إلا لكتابه وسنة نبيه ﷺ، فإذا ما أشكل على الولاة أمر رجعوا إلى المأثور من أقوال الصحابة والتابعين، أو إلى الراجح من فقه أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من الفقهاء؛ ليتعرفوا على حكم الله فيما عرض لهم، وأما ما يحدث من خلل فهو انحراف عارض في أمور جزئية، لا تبدل فيه الشرائع، ولا تغير فيه القواعد الكلية، فالأصل في هذه الصورة أن الولاة خاضعون لحكم الله عز وجل فهو دينهم الذي به يدينون، وقانونهم الذي به يقضون وإليه يحتكمون.

أما الحَكَم الأعلى في الصورة الثانية فهو المصالح البشرية البحتة التي لا تتقيد بدين، ولا ترجع إلى هدي ولا كتاب منير، بل محض الهوى وما يوحي الشيطان إلى أوليائه من ضلالات وأباطيل يسمونها نظمًا وتشريعات وقوانين! فإذا ما أشكل على الولاة أمر رجعوا فيه إلى المذكرات التفسيرية لهذه الشرائع الوافدة، أو إلى الراجح في الفقه الفرنسي أو الألماني أو الإيطالي ليستلهموا من خلاله الحكم في محل النزاع ! فالولاة في ظل هذه الصورة قد ردوا مرجعية الشريعة في علاقة الدين بالدولة، وخلعوا ربقة الأحكام الشرعية في كل ما يتصل بشئون الحياة العامة.

* إن تحري مقصود الشارع هو معيار العدل والإصابة في الصورة الأولي، أما معيار العدل والإصابة في الصورة الثانية فإنه يتمثل في مدى تحقيقه للمصالح البشرية البحتة، ومدى موافقته للقوانين الوضعية الوافدة نصًا وروحًا بحيث يعد الحكم بما أنزل الله في ظل هذه الصورة نقضًا للعهد، وهتكًا للمواثيق وخروجًا على الأعراف القضائية السائدة، بل جريمة جنائية تستوجب تقديم صاحبها إلى محكمة الجنايات ! فلو أن قاضيًا في ظل العلمانية حكم بقطع يد سارق أو برجم زانٍ فإنه يكون قد حكم بما يخالف الصواب، وخرج على مقتضى القانون الواجب الاتباع، فينقض حكمه، وينظر في أمره ليجري عليه ما يستحقه من جزاءات وعقوبات، أما الذين يسعون في تنفيذ مثل هذا الحكم فإنهم يقدمون هم ومن أعانهم على ذلك إلى محاكمة جنائية بتهمة إحداث عاهة مستديمة ! أو بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد ! وما ذلك إلا لأن القانون لا يقر هذه العقوبات، ولا يعترف



بهذه التشريعات، فهذا فارق جوهري لابد أن ينتبه إليه، فحكم الله في الصورة الأولى هو الحق والصواب، أما في الصورة الثانية فهو منكر أو جريمة تستوجب العقاب !

وسوف نبين فيما يلي مدى تعارض العلمانية مع قواعد الاعتقاد الكلية، وكيف أنها تلتحق بالشرك الأكبر المخرج من الملة وذلك في النقاط الآتية:

# ثالثاً: مفهوم العلمانية والتلبيس الواقع في هذا المصطلح

## مفهوم العلمانية:

تعبير العلمانية تعبير محدث لم يرد له ذكر في المعاجم العربية القديمة، وقد ورد هذا التعبير لأول مرة في قاموس ثنائي اللغة [ فرنسي - عربي ] ألفه أحد تراجمة الحملة الفرنسية واسمه لويس بقطر المصري، وقد طبع جزؤه الأول في مارس ١٨٢٨م، ثم دخلت الكلمة بعد ذلك إلى اللغة العربية، وأول معجم في اللغة العربية ورد فيه هذا التعبير هو المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

فقد جاء في طبعته الأولى الصادرة سنة ١٩٦٠م: [ العلماني ]: نسبة إلى العَلْم، بمعنى العالم، وهو خلاف الديني، أو [ الكهنوتي ]، وبقي الأمر كذلك في الطبعة الثانية الصادرة سنة ١٩٧٩م، أما في الطبعة الثالثة، التي صدرت سنة ١٩٨٥م، فقد وردت الكلمة فيه مكسورة العين، بعد أن ظلت مفتوحة في الطبعتين الماضيتين.

والعَلْماني (مفتوحة العين) نسبة إلى العَلْم (بفتح العين وسكون اللام) بمعنى العالم، أي الخلق كله.

والعلماني (بكسر العين ) نسبة إلى العلم التجريبي، الذي انتصر على الكنيسة بعد صراع مرير، سالت فيه دماء، وأزهقت فيه أرواح، لأن الكنيسة كانت بالمرصاد لكل رأي علمي يعارض التفسير الديني للكتاب المقدس.

## جناية المصطلحات:

بيد أن استعمال هذا المصطلح بالكسر استعمال ينطوي على قدر كبير من الخطأ والتلبيس.

- أما انطواؤه على الخطأ فلأن الكلمة في جذورها الأوروبية لا علاقة لها بالعلم فهي في اللغة الإنجليزية (Secularism)، وهذا التعبير لا صلة له بالعلم، فالعلم في كل من الإنجليزية والفرنسية (Science)، والمذهب العلمي يطلق عليه ( Scientism ) أما هذه الكلمة

(Secularism) فهي اللادينية أو الدنيوية، فنسبتها إلى العلم نسبة خاطئة لانبتات الصلة بين العلم وبين هذا التعبير في جذوره الأوروبية.

- وأما انطواؤه على التلبيس والإيهام فلأن في نسبة هذا التعبير إلى العلم ما يحجب حقيقة المعني الذي يتضمنه هذا التعبير، ويدخله في دائرة القبول العام خاصة أن مجرد الانحياز إلى العلم لا يعني نبذ الإيمان أو استبعاد الدين بالضرورة، بل لابد لإبراز هذا المعني من التحليل والتوضيح الأمر الذي تأباه حتى يتفق مع طبيعة المصطلحات.

وعلى هذا فإن المعنى الصحيح لهذا التعبير هو الفصل بين الدين والدولة، بل بتعبير أدق الفصل بين الدين والحياة، وعدم المبالاة بالدين أو الاعتبارات الدينية، ونزع القداسة عن المقررات الدينية والتعامل معها كمواريث بشرية بحتة، وقصر الدين على جانب الشعائر التعبدية الفردية البحتة باعتباره علاقة خاصة بين الإنسان وخالقه.

# رابعاً: العلمانية ناقضة لأصل الدين

لقد تمهد في قواطع الإسلام ومحكماته أن الحجة القاطعة والحكم الأعلى هو الشرع لا غير، فلا حلال إلا ما أحله الله ورسوله، ولا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله، ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله، وأن من أحل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه، أو امتنع عن التزام الحكم به والتحاكم إليه كان مارقًا من الإسلام باتفاق المسلمين.

## ومما يدل على أن العلمانية ناقضة لأصل الدين ما يلي:

### ١- العلمانية شرك في الربوبية:

لقد سبق أن الخلق والأمر من أخص خصائص الربوبية وأجمع صفاتها، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، ولهذا أجاب بهما موسى عليه السلام في مقام المحاجة مع فرعون عندما ابتدره سائلاً: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٤٩]. فكان جواب الكليم عليه السلام: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] . ومن قبل ذلك قال الخليل إبراهيم عليه السلام في وصفه لربه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨] . ومن بعد ذلك أمر محمد ﷺ أن يسبح باسم ربه الأعلى الذي تفرد بهذين الوصفين، فقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ١-٣] .

**والأمر في لغة الشارع يأتي بمعنيين:**

الأول: الأمر الكوني، وهو الذي به يدبر شئون المخلوقات، وبه يقول للشيء: كن فيكون، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] .

الثاني: الأمر الشرعي، وهو الذي به يفصل الحلال والحرام والأمر والنهي وسائر الشرائع، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] .

وإذا كانت البشرية لم تعرف في تاريخها من نازع الله في عموم الخلق أو الأمر بمفهومه الكوني، فقد حفل تاريخها بمن نازع الله في جانب الأمر الشرعي وادعى مشاركته فيه، فقد حكى لنا القرآن الكريم عمن قال:

﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣] ، ومن قال: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩] .

ورأينا في واقعنا المعاصر من ينتصرون للعلمانية، ويدينون بالفصل بين الدين والدولة! بل من اجترأ على ربه وقال: إن القوانين الوضعية خير من الشريعة الإسلامية، لأن الأولى تمثل الحضارة والمدنية، والثانية تمثل البداوة والرجعية !

ولا يتحقق توحيد الربوبية إلا بإفراد الله جل وعلا بالخلق والأمر بقسميه: الكوني والشرعي، وإفراده بالأمر الشرعي يقتضي الإقرار له وحده بالسيادة العليا والتشريع المطلق، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، ومن سوغ للناس اتباع شريعة غير شريعته فهو كافر مشرك.

وقد اتفق الأصوليون أجمعون على أن الحاكم لجميع أفعال المكلفين إنما هو الله عز وجل، فهو وحده مصدر جميع الأحكام الشرعية، ولذلك اشتهر من أصولهم: (لا حكم إلا لله ).

حتى هؤلاء الذين قالوا باستقلال العقل بمعرفة بعض الأحكام الشرعية لم ينازعوا في هذا الأصل السابق، وإنما كان نزاعهم حول كيفية التعرف على حكم الله عز وجل، فدور العقل عندهم هو دور التعرف على حكم الله الكاشف عنه أحيانًا مع اتفاق الجميع على أن الحاكم الذي يصدر الأحكام ابتداءً إنما هو الله عز وجل، ومن هنا كان اتفاقهم على تعريف الحكم الشرعي بأنه: ﷺخطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين طلبًا أو تخييرًا أو وضعًا . وقسموه قسمين:

- **الحكم التكليفي:** وهو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين طلبًا أو تخييرًا. وأقسامه خمسة: الإيجاب والتحريم والكراهة والندب والإباحة.

- **الحكم الوضعي:** وهو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الوضع، وهو ما اقتضى وضع شيء سببًا لشيء أو شرطًا له أو مانعًا منه.

وعلى هذا فالعلمانية وما تعنيه من رد مرجعية الشريعة، وادعاء الحق في إصدار أحكام عامة ملزمة على سبيل الإيجاب أو التخيير أو الوضع على خلاف أمر الله ورسوله، يعد منازعة لله في ربوبيته وألوهيته، وعملاً من أعمال الشرك الأكبر بلا نزاع؛ إذ لا فرق بين من ينازع الله في صفة الخلق، ومن ينازعه في صفة الأمر، فكلاهما طاغوت مشرك متمرد على مقام العبودية، منتهك لحرم الربوبية والألوهية.

وقد كانت ربوبية الأحبار والرهبان في بني إسرائيل من هذا القبيل، فقد أحلوا ما حرم الله وحرموا حلاله، فتابعهم الناس على ذلك، فلم تكن الربوبية فيهم في جانب الخلق أو الأمر الكوني، بل كانت في جانب الهداية والأمر الشرعي.

عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [ التوبة: ٣١ ] .

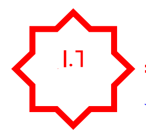
فقال: إنا لسنا نعبدهم. قال: (( أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟)) فقال: بلى. قال: (( فتلك عبادتهم ))رواه أحمد والترمذي[1] .

فحقيقة الإقرار بالربوبية لا تتمثل في إفراد الله جل وعلا بالخلق والتدبير الكوني فحسب، بل تمتد لتشمل إفراده تعالى بالأمر والقضاء الشرعي، وقبول ما جاء به رسوله ﷺ من الهدي والشرائع، وذلك لأن المنازعة في الأمر الشرعي كالمنازعة في الأمر الكوني ولا فرق، فإن الذي أوجب الرضا بقدره هو الذي أوجب التحاكم إلى شرعه، وهو القائل:

﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [ يوسف: ٤٠ ] ، والقائل: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١ ] .

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير حديث ٣٠٩٥ بغير هذا اللفظ، وقال: غريب.



## ٢- العلمانية شرك في الألوهية:

أما كون العلمانية شركاً في التوحيد في جانب الألوهية فلما تمهد من أن الإله هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة بكمال المحبة وكمال الطاعة، وأن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، ففي الحديث المتفق على صحته قوله ﷺ: (( يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد ؟ )) قال: الله ورسوله أعلم. قال: (( حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا )).

وقد تمهد فيما سبق أن توحيد العبادة ينتظم جانبين رئيسين: توحيد الإرادة والقصد، وتوحيد الطاعة والاتباع.

- أما توحيد الإرادة والقصد فيراد به إفراد الله بالشعائر التعبدية كالصلاة والحج والدعاء والنذر والذبح ونحوه.

- وأما توحيد الطاعة والاتباع فيراد به إفراد الله بكمال الخضوع والطاعة، وإخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدًا لمولاه، وذلك بتحكيم شرعه وحده، والقبول التام لكل ما جاء به نبيه ﷺ، والبراءة من كل ما يتنافى مع ذلك من الأهواء البشرية.

وإلى هذين الجانبين يشير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [ الأنعام: ١٦١- ١٦٣ ] .

فالآية الأولى تشير إلى توحيد الطاعة والاتباع، فلا يتلقى الهدي إلا من الله، والآيتان اللتان بعدها تشيران إلى توحيد الإرادة والقصد، فلا يتوجه بالأعمال إلا إلى الله.

فالانقياد لله عز وجل والتزام طاعته هو أحد ركني العبادة، فمن زعم حب الله عز وجل وتصديقه ولكنه رفض الطاعة له أو الانقياد لأمره، واختار لنفسه طريقًا آخر مضادًا للصراط المستقيم الذي شرعه الله وأمر باتباعه، واتخذ ذلك منهجًا ثابتا وديدنا مضطردًا يوالي عليه ويعادي عليه، فقد ضاد الله في أمره وجعل نفسه ندًا للذي خلقه.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] .

- وقد ذكر الحافظ ابن كثير عن سعيد بن جبير قال: خاصمت اليهود النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟! فأنزل الله هذه الآية.

- وروي أيضًا عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾

أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدًا وقولوا له: فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب يعني الميتة فهو حرام ؟! فنزلت هذه الآية:

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [ الأنعام: ١٢١ ].

- قال ابن كثير: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم غيره عليه فهذا هو الشرك كقوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١ ] .

والمقصود في هذا المقام أن الله عز وجل قد جعل عدولهم إلى غير شريعة الله يعد إشراكًا بالله.

أوجه أخرى لنقض العلمانية لأصل الدين:

## ٣- العلمانية ثورة على النبوة:

لا يخفى أن الإيمان بنبوة محمد ﷺ هو المدخل إلى الإسلام، فإن الشهادة لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة هما أول واجب على المكلف، وأول ما يخاطب به الناس عند الدعوة إلى الإسلام، كما قال ﷺ لمعاذ بن جبل عندما بعثه إلى اليمن: (( إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.... )) الحديث.

وحقيقة الإيمان بنبوته يتمثل في تصديق خبره جملة وعلى الغيب، والتزام هديه جملة وعلى الغيب، فما آمن بمحمد ﷺ وما ارتضى نبوته من كذب بخبره أو رد عليه شرعه؛ لأن حقيقة الإيمان هي التصديق والانقياد ومن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر بالله العظيم.

يقول ابن القيم - رحمه الله: ( وأما الرضي بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدي إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبته، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه. لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه ) [ مدارج السالكين ٢/ ١٧٢ ].

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] .

**قال ابن كثير - رحمه الله: يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا ولهذا قال:**

﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

**أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة كما ورد في الحديث: (( والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به ))** [ تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٠ ] [(١)]

**ويقول الجصاص - رحمه الله: وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئًا من أوامر الله تعالى أو أوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم، وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم**

---

( ١) حديث "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به" حديث ضعيف، قال ابن عساكر بعد تخريجه لهذا الحديث: هو حديث غريب، وقال الألباني: إسناده ضعيف.

وسبي ذراريهم، لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبي ﷺ قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان .[1]

[أحكام القرآن للجصاص ٣/١٨١ ] .

فأين هذا من ترك التحاكم إلى شريعته ابتداء، واتهامها بالبداوة والرجعية ؟ أو الجمود وعدم الصلاحية للتطبيق ؟

لقد نهي الصحابة في القرآن عن أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته ﷺ، وأن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، وجعل من هذا الفعل - الذي قد يبدو يسيرًا - سببًا لحبوط الأعمال، وسبيلاً قاصدًا إلى الردة عن الإسلام، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

يقول ابن القيم - رحمه الله: ﷺ فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم، فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه ؟ أليس هذا أولى أن يكون محبطًا لأعمالهم؟ [ إعلام الموقعين لابن القيم ١/٥١ ].

قلت: فكيف إذا كان الأمر إهدارًا لشريعته، واجتراء على هديه، وردًا لسنته، ونبذًا لما جاء به من شرائع الإسلام بالكلية ؟!!

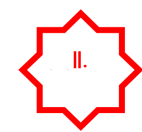
## ٤- العلمانية نقض لعقد الإيمان المجمل:

فقد تمهد في أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وأن أصله تصديق الخبر والانقياد للأمر، وأن من لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر بالله العظيم.

فلا يثبت عقد الإيمان بمجرد التصديق الخبري، بل لابد من التكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد، ولهذا لما جاء نفر من اليهود إلى النبي ﷺ وقالوا: ( نشهد إنك لرسول ) لم

---

( ١ ) من منع الزكاة ردًا لها فهو كافر بإجماع المسلمين، ومن منعها بخلاً بها واتباعًا للهوى فهو باغ من البغاة وتكفيره موضع اجتهاد.



يكونوا مسلمين بذلك لأنهم قالوا ذلك على سبيل الإخبار عما في أنفسهم فحسب، أي نعلم ونجزم أنك رسول الله، قال: (( فلم لا تتبعوني؟ ))، قالوا: نخاف يهود !

يقول ابن القيم رحمه الله: ( ونحن نقول: الإيمان هو التصديق، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقاد صدق المخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانًا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدًا رسول الله كما يعرفون أبناءهم مؤمنين مصدقين، فالتصديق إنما يتم بأمرين: أحدهما: اعتقاد الصدق، والثاني: محبة القلب وانقياده ) [الصلاة لابن القيم ١٩ - ٢٠].

ويقول القسطلاني في تعريف الإيمان: ( وهو لغة التصديق، وهو كما قال التفتازاني: إذعان لحكم المخبر وقبوله، فليس حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة التصديق إلى الخبر أو المخبر من غير إذعان وقبول، بل هو إذعان وقبول لذلك بحيث يقع عليه اسم التسليم ) [ إرشاد الساري ٨٢/١ ].

ولا يخفى أن العلمانية بردها لشريعة الله، وامتناعها عن قبول ما أنزل الله قد أسقطت ركن الانقياد من حقيقة الإيمان، فتكون نقضًا للإيمان المجمل الذي لا تثبت صفة الإسلام إلا باستيفائه، ولا يبقى معها من الإيمان - إن بقيت على ادعائه - إلا التصديق الخبري المحض كالذي كان مع أحبار اليهود الذين شهدوا لرسول الله ﷺ بالرسالة لما أجابهم عن أسئلتهم بما يعلمون من كتبهم فقال لهم ﷺ: (( فما يمنعكم من اتباعي ؟ )) قالوا: نخاف قومنا يهود !

أو الذي كان مع هرقل الذي أعلن تعظيمه للنبي ﷺ ولكن امتنع عن اتباعه خشية على ملكه.

أو الذي كان مع أبي طالب الذي أعلن بأن دين محمد من خير أديان البرية، والذي ظل عمره كله يحوط رسول الله ﷺ ويمنعه، ولكن امتنع عن اتباعه خشية الملامة ومسبة العرب له بأن أسته تعلو رأسه !!

وإننا لو أثبتنا إيمانًا أو صححنا توحيدًا لمن كان حظه من الشرائع السماوية مجرد اعتقاد صدقها وأنها منزّلة من عند الله لحكمنا بإيمان أغلب من في الأرض !! ذلك أن آيات الله مبصرة فلا يملك القلب البشري تجاهها إلا الإذعان والتسليم لاسيما إذا ما عرضت خالية من التشويه والتحريف، ولكن يختلف الناس بعد ذلك في الموقف العملي: أهو الإخبات والطاعة ؟ أم الإباء والاستكبار ؟!

فالإيمان - كما سبق - ليس مجرد التصديق، ولكنه الإقرار والطمأنينة وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد.

## ٥- العلمانية استحلال للحكم بغير ما أنزل الله:

إن العلمانية بما تقوم عليه من تبني الكفر بمرجعية الشريعة في علاقة الدين بالحياة، وامتناعها عن الالتزام بشرائع الإسلام، واتهامها لمن ينازعها في ذلك بالرجعية والتطرف الإرهاب... الخ، تعد استحلالاً للتحاكم في الدماء والأموال والأعراض إلى غير ما أنزل الله، وتسويغًا للخروج على شريعة الإسلام في كل ما يتعلق بشئون الحياة، وكل ذلك من الكفر الصراح الذي لا يجتمع مع أصل الإسلام بحال، فقد اتفقت الأمة على أن استحلال المحرمات القطعية كفر بالإجماع، لم ينازع في ذلك - فيما نعلم — أحد.

**يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:**

( والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرًا ومرتدًا باتفاق الفقهاء، وفي مثل هذا نزل قول الله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] .(أي هو المستحل للحكم بغير ما أنزل الله ) [ مجموع فتاوي ابن تيمية ٣/٢٦٧ ].

وإن في الامتناع عن الالتزام بشرائع الإسلام أو بالحكم بها استباحة لما حرم الله ورسوله ﷺ، وذلك أن الاستحلال ليس مجرد عدم الاعتقاد بأن الله قد حرم هذا الشيء، بل يكون أيضًا مع اعتقاد حرمته وعدم التزام هذا التحريم.

**فللاستحلال صورتان:**

- **الأولى:** عدم اعتقاد الحرمة، ومرده حينئذ إلى خلل في الإيمان بالربوبية والرسالة، ويؤدي إلى كفر التكذيب.

- **الثانية:** اعتقاد الحرمة والامتناع عن التزام هذا التحريم، ومرده في هذه الحالة إما إلى خلل في التصديق بصفة من صفات الشارع جل وعلا كالحكمة والقدرة، وإما لمجرد التمرد واتباع هوى النفس.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ( وبيان هذا أن من فعل المحارم مستحلاً لها فهو كافر بالاتفاق، فإنه ما آمن بالقرآن من استحل محارمه، وكذلك لو استحلها من غير فعل، والاستحلال: اعتقاد أن الله لم يحرمها، وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرمها، وهذا يكون لخلل في الإيمان بالربوبية، ولخلل في الإيمان بالرسالة، ويكون جحدًا محضًا غير مبني على مقدمة.

وتارة يعلم أن الله حرمها، ويعلم أن الرسول إنما حرم ما حرمه الله، ثم يمتنع عن التزام التحريم ويعاند المحرم فهذا أشد كفرًا ممن قبله، وقد يكون هذا مع علمه أن من لم يلتزم هذا التحريم عاقبه الله وعذبه، ثم إن هذا الامتناع والإباء إما لخلل في اعتقاد حكمة الآمر وقدرته فيعود هذا إلى عدم التصديق بصفة من صفاته، وقد يكون مع العلم بجميع ما يصدق به تمردًا أو اتباعًا لغرض النفس، وحقيقته كفر هذا لأنه يعترف لله ورسوله بكل ما أخبر به، ويصدق بكل ما يصدق به المؤمنون، لكنه يكره ذلك و يبغضه ويسخطه لعدم موافقته لمراده ومشتهاه، ويقول: أنا لا أقر بذلك ولا ألتزمه وأبغض هذا الحق وأنفر عنه فهذا نوع غير النوع الأول، وتكفير هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام )

[ الصارم المسلول لابن تيمية: ٥٢١ - ٥٢٢ ].

فلا يشترط إذن في الاستحلال أن يكون دينيًا، أي يعتقد حل المحرمات دينا، بل يكفي أن يأبى هذا التحريم كما أبى إبليس أن يسجد لآدم لكي يكون مستحلاً كافرًا بإجماع الأمة.

فمن امتنع عن التزام الحكم بشرائع الإسلام، وتحاكم في الدماء والأموال والأعراض إلى غير ما أنزل الله، وشرع للناس من الأحكام ما لم يأذن به الله فإنه يكون مستجيرًا مخالفة حكم الله، مستحلاً للحكم بغير ما أنزل الله، وتكفيره معلوم بالاضطرار من دين الإسلام.

## ٦- العلمانية منازعة في أصل دين الإسلام:

فالإسلام كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ( يتضمن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا، ومن لم يستسلم له كان مستكبرًا عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده، وهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت ) [ مجموع فتاوى ابن تيمية ٩١/٣ ] .

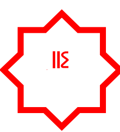
ولا شك أن العلمانية بما تتضمنه من رفض الاستسلام لله وحده، وإعلان الكفر بمرجعية وحيه في علاقة الدين بالدولة، ورفض الدخول ابتداء تحت دائرة التكليف فإنها بهذا تكون منازعة لدين الإسلام في أصله، ومناقضة له في أساسه ولبه.

ولكي تزداد هذه الحقيقة جلاء لابد أن نتعرف على حقيقة الدين وما يندرج تحته من شرائع وتكليفات، ذلك أن كثيرًا من الناس في هذا العصر يخطئ في فهم حقيقة الدين الذي أنزله الله على محمد ﷺ ويظنه لا يتجاوز ما يقام فينا من شعائر العبادات، وما يهتف به الوعاظ والخطباء من الدعوة إلى مكارم الأخلاق، أما ما وراء ذلك من شئون الحياة فلا علاقة للدين به طبقًا لمقولة: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! أو لمقولة لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، ولا يخفى أن من كانوا كذلك إنما يتصورون دينًا آخر ويسمونه الإسلام.

فالدين هو جملة ما جاء به محمد ﷺ من عند الله من عقائد وعبادات وشرائع. كل ذلك داخل في مسمى الدين، مقصود بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [ آل عمران: ١٩ ]. وقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣ ].

ولا يخفى أن في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة أحكاما كثيرة ليست من التوحيد ولا من العبادات، كأحكام البيع والربا والرهن والدين والإشهاد وأحكام الزواج والطلاق واللعان والظهار والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث وأحكام القصاص والدية وقطع يد السارق وجلد الزاني وقذف



المحصنات وجزاء الساعي في الأرض فسادًا... بل في القرآن آيات حربية و....الخ. وهذا يدلنا على أن من يدعو إلى العلمانية أو إلى فصل الدين عن السياسة إنما تصور دينًا آخر وسماه الإسلام.

**هذا ولا يخلو حال الداعين إلى هذه النحلة من أحد أمرين:**

- إما أن ينكروا كل هذا الحشد الهائل من الأحكام، ويكذبوا بما جاء فيها من الآيات والأحاديث، وحكم هؤلاء معلوم بالضرورة من الدين.

- وإما أن يقروا بوجود هذه الأحكام في الكتاب والسنة، وينكروا صلاحيتها للتطبيق وكفالتها بالمصالح في هذا العصر، وفي هذا المسلك من الزندقة والكفر ما فيه؛ فإن عيب هذه التشريعات عيب للمشرع جل في علاه، وقد استحق إبليس لعنة الخلد ونار الأبد لأنه رد على الله حكمًا واحدًا من أحكامه، فكيف بمن يرد على الله أحكامه كافة متهمًا لها بعدم الصلاحية، ويعد الدعوة إلى تطبيقها لونًا من ألوان الردة الحضارية ؟!!

لقد عرفت الأمة من قبل - ولا تزال - خلافات فقهية كثيرة تمحورت إلى أربعة مذاهب رئيسية عدا ما اندثر من المذاهب الأخرى، كما عرفت خلافات عقائدية كثيرة تمحورت إلى قرابة ثلاث وسبعين فرقة وقفت على رأسها الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة وبقي من عداهم من أهل الوعيد..

إلا إن هذه المذاهب وتلك الفرق قد التقت في الجملة على أصل الإيمان بالله ورسوله، واتفقت على الإقرار المجمل بالتوحيد والرسالة، فاعتقدوا جميعًا بتفرد الله وحده بالخلق والأمر، ودانوا جميعًا بأن الحجة القاطعة والحكم الأعلى هو الوحي المعصوم، وكل ما نشأ بينهم بعد ذلك من الاختلافات فقد كان داخل هذا الإطار، فالطاعة للتكليف واتباع النبي ﷺ لم تكن موضع مماراة من أحد منهم، ولهذا صح وصف هذه الفرق بأنها فرق إسلامية.

أما منازعة العلمانيين اليوم فهي منازعة في أصل الدين، ومشاقة بينة لله ولرسوله وللمؤمنين، إنهم يجادلون في حجية الوحي الأعلى المعصوم، وينازعون في مبدأ الدخول في دائرة التكليف، ويكفرون بصلاحية الشريعة -كل الشريعة- للتطبيق.. إنها ثورة على الإسلام.. وانقلاب ضد النبوة.. إنها حريق حول الكعبة !!

## ٧- العلمانية طاغوت تعبد الله عباده باجتنابه والكفر به:

لقد جعل الله الكفر بالطاغوت قسيم الإيمان بالله، وتعبد أولياءه بالكفر بالطاغوت واجتنابه في مواضع شتى من القرآن الكريم.

فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [ النحل: ٣٦ ].

وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [ البقرة: ٢٥٦ ] .

وبيّن أن ادعاء الإيمان لا يصح مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلاً بَعِيدًا ﴾ [ النساء: ٦٠ ] .

وتمدح الذين اجتنبوا الطاغوت، وجعل لهم البشرى في كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر: ١٧] .

والطاغوت هو ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، يقول العلامة ابن القيم - رحمه الله: ( الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله ) [ إعلام الموقعين ١/٢٥ ] .

والعلمانية بما تعنيه من رفض الدخول في إطار التكليف، وخلع ربقة العبودية فيما يتعلق بأمور الدولة وسائر أمور الحياة العامة، وتعبيد أتباعها للأهواء المجردة، وعقد الولاء والبراء على ذلك - لاشك أنها من أظهر أنواع الطواغيت التي أمرنا بالكفر بها واجتنابها.

# خامساً: خلاصة القول في شبهة التسوية بين العلمانية وبين انحرافات التطبيق الجزئية

لقد تمهد - كما سبق - في محكمات الأدلة أن توحيد الألوهية يقتضي إفراد الله بالطاعة والانقياد، وأن الإيمان المجمل هو التصديق والانقياد، وأن الكفر هو عدم الإيمان، سواء أكان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض، وأن من لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر.

وعلى هذا يمكن تفصيل القول في قضية الحكم بغير ما أنزل الله، ذلك أن تعبير الحكم بغير ما أنزل الله، قد يقصد به عمل القضاة والمنفذين، وقد يقصد به عمل الأصوليين المشرعين، وعلى حسب الدقة في تحديد المناط تكون الدقة في سلامة الحكم وموافقته لمراد الشارع:

★ فإن قصد به عمل القضاة والمنفذين نظر: فإن كان مرده إلى تكذيب الحكم الشرعي أو رده فهو كفر أكبر يخرج من الملة، وإن كان مرده إلى عارض من هوى أو رشوة أو نحوه مع بقاء التحاكم ابتداء إلى الكتاب والسنة أو ما حمل عليهما بطريق الاجتهاد فهو من جنس الذنوب والمعاصي، وأصحابه في مشيئة الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم.

وهذه هي صورة الحكم بغير ما أنزل الله التي عرفت في تاريخ الإسلام، والتي قال فيها علماء الإسلام ما قالوا وفصلوا فيها من الأحكام ما فصلوا، إذ لم تعرف الدولة في تاريخها الطويل نبذًا كاملاً لأحكام الله واطراحًا مجملاً لشريعة الله، وتحاكمًا من حيث المبدأ إلى كتاب غير القرآن وإلى دين غير الإسلام؛ اللهم إلا مرة واحدة في أيام التتار ولقد جزم أهل العلم يومها بأن هذه الصورة المستحدثة لا تكييف لها إلا الكفر، وأن أصحابها كفار بلا خلاف وأنه يجب قتالهم حتى يرجعوا إلى حكم الله ورسوله.

قال ابن كثير رحمه الله عما كان يحكم به التتار من السياسات الملكية: ( فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير )

[ تفسير ابن كثير: ٢/٧٦ ].

ويقول في البداية والنهاية: ( فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه، من فعل فقد كفر بإجماع المسلمين ) [ البداية والنهاية لابن كثير: ١٣/١١٩ ] .

٭ أما إن قصد به المعنى الأصولي التشريعي الذي هو خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين على سبيل الاقتضاء أو التخيير أو الوضع، وأريد به إصدار قواعد تشريعية عامة تبدل بها شرائع الاسلام وتكون لها السيادة في الأمة بدلاً من سيادة الكتاب والسنة وتصبح هي المرجع في الحكم عند التنازع، ويقدم العمل بها على العمل بأحكام الشريعة المطهرة، فلا جدال في أن لهذه الصورة مناط واحد وتكييف واحد وهو الكفر الأكبر المخرج من الملة الذي لا تبقى معه من الإيمان حبة خردل، كما قال تعالى:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ( والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال المجمع عليه أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرًا مرتدًا باتفاق الفقهاء ) [ مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣/٢٦٧ ].

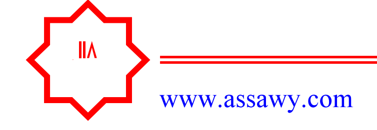
وقد سبق قول ابن كثير: ( فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء ﷺ وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه ؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين ).

ولقد أدى اللبس في هذه القضية وعدم تحديد مناطات الحكم في صوره المختلفة إلى اضطراب كثير من أهل العلم من منتسبي الحركة الإسلامية وغيرهم في تقريرها، مما أتاح للمبطلين أن يجدوا من بين فرجات اختلافهم مدخلاً لهم يلبسون به على العامة، ويسبغون به الشرعية على هذه العلمانية الغازية التي تقوم على رد شرائع الإسلام، واستباحة الحكم بغير ما أنزل الله، وإهدار سيادة الشريعة الإسلامية، وحمل الأمة كلها على تحكيم القوانين الوضعية، وذلك بإشاعة القول بأن الكفر الوارد في قوله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

هو الكفر الأصغر الذي لا ينقل عن الملة، ويسوقون في ذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين في بيان أنه كفر دون كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته، فنصبح بذلك أمام خلل جزئي أو انحراف فروعي لا يبرر انعدام الشرعية ولا سقوط واجب الطاعة.

ولقد نبه الشيخ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على الطبري إلى هذا الخلل، وفصّل القول في مثل هذه الآثار عند تعليقه على ما أورده الطبري في تفسير قوله تعالى:



﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

من قول أبي مجلز - وهو تابعي ثقة - لمن سأله من الإباضية عن معنى هذه الآية، وأرادوا أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلطان، ولأنهم ربما ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه فأجابهم أبو مجلز بقوله: ( إنهم يعملون بما يعملون - يعني الأمراء - ويعلمون أنه ذنب ! قال: بينما أنزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، قالوا: أما والله إنك لتعلم مثل ما نعلم، ولكنك تخشاهم ! قال: أنتم أحق بذلك منا، أما نحن فلا نعرف ما تعرفون ! قالوا: ولكنكم تعرفونه ولكن يمنعكم أن تمضوا أمركم من خشيتهم ! ) [ تفسير الطبري ٢٥٢/٦- ٢٥٣ ] .

يقول الشيخ محمود شاكر رحمه الله تعليقا على ذلك: ( فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلي لسان نبيه ﷺ فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه.

والذي نحن فيه اليوم هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار حكم غير حكمه في كتابه وسنة نبيه، وتعطيل لكل ما في شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وادعاء المحتجين بذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا، ولعلل وأسباب انقضت فسقطت الأحكام كلها بانقضائها. فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز، والنفر من الإباضية من بني عمرو بن سدوس ) [ راجع تفسير الطبري بتحقيق محمود شاكر ٣٤٩/١٠ ].

ويقول في موضع آخر: ( ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكمًا وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها، هذه واحدة، وأخرى أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة، وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية فهذا ذنب تناله التوبة وتلحقه المغفرة، وإما أن يكون حكم به متأولاً حكمًا يخالفه به سائر العلماء فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب، وسنة رسول الله ﷺ. وأما أن يكون في

زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر جاحدًا لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثرًا لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه.

فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابهما، وصرفهما إلى غير معناهما رغبة في نصرة سلطان، أو احتيالاً على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد بحكم من أحكام الله: أن يستتاب، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله، ورضي بتبديل الأحكام فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين ) [ تفسير الطبري بتحقيق محمود شاكر: ١٠/٣٥٨ ].

والذي نخلص إليه من ذلك كله أن قول بعض السلف كفر دون كفر في تفسير هذه الآية لا ينصرف مناطه إلى مناط العلمانية التي ترد مرجعية الشريعة، وتهدر سيادتها في علاقة الدين بالدولة، وتجعل من التحاكم إليها خروجًا على الشرعية وسببًا قاطعًا من أسباب بطلان الحكم ونقضه!

## سادساً: شبهة وجوابها

ولكن تبقى بعد ذلك شبهة: وهي أن هذه النصوص السابقة إنما هي في قوم رفضوا الدخول في الإسلام من البداية، وأبوا أن يذعنوا له رغم معرفتهم بأنه حق من عند الله، أما هؤلاء المتنعون عن التزام الشرائع أو الحكم بها فقد أعلنوا قبولهم للإسلام في الجملة.

ويجاب عن هذا بأنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا فرق بين من يدفع جميع ما أنزل الله على عباده، ومن يدفع شيئًا واحدًا من ذلك، كما لا فرق بين من يكذب بالقرآن كله ومن يكذب بسورة واحدة من سوره أو حتى آية واحدة من آياته، ولا بين من يجحد الإسلام من البداية ومن يجحد حكمًا واحدًا من أحكامه القطعية، فمن أعلن قبوله للإسلام والتزامه بشرائعه جملة، ثم رد شيئًا من أحكامه القطعية فقد خرق بذلك قاعدة الخضوع والتزام الطاعة، وهي التي تمثل إحدى دعامتي التوحيد كما سبق القول.

**ولكن سؤالاً يرد في هذا المقام:**

**هل مجرد التحاكم إلى الشرائع الوضعية والتزامها يعد خلعًا للربقة وتحللاً من الالتزام بشرائع الله ؟**

**وفي الجواب على هذا تفصيل لا غنى عن ذكره:**

**أولاً:** لا شك أن الإقدام على نقض أحكام الله وتبديل شرائعه، وإحلال أهواء البشر محلها طواعية واختيارًا بلا عارض من تأويل أو إكراه، وحمل الأمة على ذلك بقوة السلطان يعد شركًا بالله العظيم وكفرًا بربوبيته وألوهيته.

**ثانيًا:** أما من توارث ذلك عمن سبقه من الولاة، ولم يبتدئ جريمة التبديل والفصل بين الدين والدولة فلا يخلو حاله من صورة من هذه الصور:

- أن يرضى بهذه العلمانية، ويعلن التزامه بها، ويسعى للتمكين لها، ويعقد ولاءه وبراءه عليها، فهذا لا شك في كفره؛ لأن الرضا بالكفر والتزامه كفر بالاتفاق.

- أن يعلن الكفر بها والعزم على تغييرها، ويتخذ بهذا الصدد خطوات حقيقية تبين صدقه في دعواه، فهذا قد برئ من الرضا والمتابعة، وذلك هو المسلم الذي له ذمة الله ورسوله، ويجب على الأمة عونه وتأييده، وقد يستغرق استكمال التغيير مددًا تطول أو تقصر، ولكن هذا لا يقدح في صحة إسلامه ما صدقت أفعاله أقواله.

- أن يروغ في مواقفه، فلا يعلن صريح الرضا والمتابعة، ولا صريح الانخلاع والبراءة، وإنما تتذبذب مواقفه بين الفريقين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهذا هو النفاق الذي ما فتئت تواجهه الدعوات على مدار التاريخ، وعلى الأمة أن تتابع مواقفه، وأن تلجئه إلى التزام أحد المنهجين لتفوت عليه ما يريده من الخداع والتلبيس، فإذا ما أظهر نفاقه بيقين فقد زالت شرعيته وسقطت طاعته.

والحق أن هذا الموقف الأخير هو أخطر ما يواجه الدعوة إلى إقامة الدين في هذا العصر؛ لأنه يجعل الناس في هؤلاء المارقين فئتين:

- فئة تحسن الظن بأقوالهم، فتلقي إليهم السلم، وتشايعهم بالقول والعمل، وتتهم الآخرين بالغلو والشطط!

- وفئة أخرى حاكمت أقوالهم إلى أعمالهم، فتبين لها كذب المقالات وزيف الشعارات، فلم تقم لها وزنًا وحكمت عليهم بما أسفر عنه استقراء واقعهم، ورصد حقيقتهم.

وإن كانت هذه الأخيرة قد أطلق بعضها القول فلم يدرس الظروف والملابسات التي تحيط ببعض هؤلاء، وربما تمثل شبهة إكراه يجب اعتبارها عند إجراء الأحكام.

**وإن المعركة الحقيقية في مثل هذه المواقع لابد أن تكون على محورين:**

- **الأول**: بيان حقيقة التوحيد وتبليغها للكافة حتى يستفيض العلم بأنه لا حكم إلا لله، وأن العلمانية والإسلام نقيضان، وأن تحكيم القوانين الوضعية لا يجتمع مع أصل الإيمان بحال من الأحوال.

- **الثاني**: بيان حقيقة الواقع ورصده بمنتهى الموضوعية والدقة، حتى يتبين للناس الحقيقة والدعوى في هذه المزاعم والادعاءات.

ذلك أن من الناس من يجهل حقيقة التوحيد وعلاقته بتحكيم الشريعة ووجوب إفراد الله بالطاعة.

ومنهم من يجهل حقيقة الواقع تحت تأثير أبواق التضليل والدعاية وخبراء الخداع والتلبيس ! وهؤلاء يمثلون في الواقع نسبة عالية لا يستهان بها، وفيهم الدعاة والهداة من حملة القرآن والسنة ممن يقرون بالقضية في جانبها العلمي، وتعتبر عند كثير منهم من البدهيات والمسلمات، ولكنهم فتنوا بالشعارات والتصريحات التي تطلقها أبواق العلمانية فشوشت عليهم الرؤية وجعلتهم في أمر مريج!

بقيت مسألة في غاية الأهمية وهي أن موقف الدعوة من العلمانية موقف عقيدي ثابت، فالعلمانية والإيمان نقيضان، وهي من الطواغيت التي تعبد الله عباده بالكفر بها واجتنابها، ومهما تفاوتت اجتهادات الدعاة في أشخاص القائمين عليها من طواغيت البشر فلا علاقة لذلك بالقضية الأصلية وهي رفض هذا المنهج وعدم مشايعة سدنته بقول أو عمل.

# سابعاً: من فتاوى أئمة المسلمين في علمانية التشريع

## ابن كثير:

قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] .

( ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات، وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنية شرعًا يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير ) [ تفسير ابن كثير: ٦٧/٢] .

**ويقول في البداية والنهاية:** ( فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء ﷺ، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه ؟! من فعل فقد كفر بإجماع المسلمين ) [ البداية والنهاية: ١١٩/١٣] .

## أبو بكر الجصاص:

يقول في أحكام القرآن في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [ النساء: ٦٥ ] .

( وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئًا من أوامر الله تعالى أو أوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم؛ وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم؛ لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبي ﷺ قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان ) [ أحكام القرآن: ١٨١/٣] .

### النسفي:

ويقول النسفي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] .

(إن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق ) [ تفسير النسفي ] .

### ابن تيمية:

( والإنسان متى أحل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرًا مرتدًا باتفاق الفقهاء ) [مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣/٢٦٧] .

### محمد بن إبراهيم آل الشيخ:

( إن من الكفر الأكبر المستبين؛ تنزِيل القانون اللعين منزِلة ما نزل به الروح الأمين، على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبين ).

ثم أخذ يعدد أنواع الحكم بغير ما أنزل الله التي تخرج من الملة فقال:

( من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي، كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني، أو غير ذلك من مذاهب الكفار، وأي كفر فوق هذا الكفر؟ وأي مناقضة للشهادة بأن محمدًا رسول الله بعد هذه المناقضة؟)

[ رسالة تحكيم القوانين:٦، ٧ ] .

### عبد العزيز بن باز:

ويقول الشيخ عبد العزيز بن باز في معرض نقده لدعوة القومية العربية: ﷺإن الدعوة إليها والتكتل حول رايتها يفضي بالمجتمع ولابد إلى رفض حكم القرآن؛ لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكامًا وضعية تخالف حكم القرآن حتى يستوي مجتمع القومية في تلك الأحكام، وقد صرح الكثير منهم بذلك كما سلف، وهذا هو الفساد العظيم والكفر المستبين والردة السافرة كما قال تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء :٦٥] . وقال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة :٤٦].،

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة :٤٧].

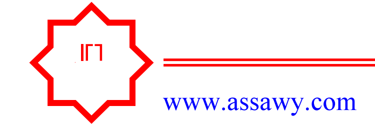
**وكل دولة لا تحكم بشرع الله، ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات، يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله حتى تؤمن بالله وحده وتحكم شريعته؛ كما قال عز وجل:**

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾

[فكرة القومية العربية لصالح العبود: ٢٦٨] .

**ويقول في موضع آخر: وقد أجمع العلماء على أن من زعم أن حكم غير الله أحسن من حكم الله، أو أن غير هدي رسول الله ﷺ أحسن من هدي الرسول ﷺ فهو كافر، كما أجمعوا على أن من زعم أنه يجوز لأحد من الناس الخروج على شريعة محمد ﷺ أو تحكيم غيرها فهو كافر ضال، وبما ذكرناه من الأدلة القرآنية، وإجماع أهل العلم يعلم السائل وغيره، أن الذين يدعون إلى الاشتراكية أو إلى الشيوعية أو غيرها من المذاهب الهادمة المناقضة لحكم الإسلام، كفار ضلال أكفر من اليهود والنصارى؛ لأنهم ملاحدة لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يجوز أن يجعل أحد منهم خطيبًا أو إمامًا في مسجد من مساجد المسلمين ولا تصح الصلاة خلفهم، وكل من ساعدهم على ضلالهم، وحسَّن ما يدعون إليه وذم دعاة الإسلام ولمزهم، فهو كافر ضال، حكمه حكم الطائفة الملحدة، التي سار في ركابها وأيدها في طلبها، وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين وساعدهم عليهم بأي نوع من أنواع المساعدة، فهو كافر مثلهم** [ مجموع الفتاوى ومقالات متنوعة: ٢٧٤/١ ] .

## محمد الأمين الشنقيطي:



ويقول الشنقيطي: ( وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا، يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم ) [ أضواء البيان للشنقيطي ].

ويقول في موضع آخر: ( وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السماوات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف بل يلزم استواؤهما في الميراث، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوها أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان ونحو ذلك.. فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كفر بخالق السماوات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علوًا كبيرًا

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [ الشورى :٢١ ]. [ أضواء البيان للشنقيطي ] .

### محمد حامد الفقي:

ذكر في تعليقه على كتاب فتح المجيد معقبًا على كلام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ.. ﴾ الآية:

**( ومثل هذا وشر منه من اتخذ كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله، ولا ينفعه أي اسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها )** [ فتح المجيد لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: ٤٠٦ ] .

### أحمد شاكر:

( إن الأمـر في هـذه القـوانين الوضـعية واضـح وضـوح الـشمس، هـي كفـر بـواح لا خفـاء فيـه ولا مداورة، ولا عذر لأحد ممن ينتـسب إلى الإسـلام كائنـا مـن كـان في العمـل بهـا أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرئ حسيب نفسـه ) [ عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٤/١٧٤ ] .

## مصطفى صبري ( شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ) :

( فصل الدين عن الدولة ارتداد عن الإسلام من الحكومة أولاً ومن الأمـة ثانيًـا، إن لم يكـن ارتـداد الداخلين في حوزة تلك الحكومة باعتبارهم أفرادًا فباعتبارهم جماعة وهو أقصر طريـق إلى الكفـر مـن ارتـداد الأفراد، بل إنه يتضمن ارتداد الأفراد أيضًا لقبولهم الطاعة لتلك الحكومة المرتدة).

## محمد الخضر حسين شيخ الأزهر سابقًا:

أما أن تفعل البلاد الإسلامية ما فعلته الدول الغربية مـن تجريد السياسة من الدين، فهو رأي لا يصدر إلا ممن يكنّ في صدره أن ليس للدين من سلطان على السياسة، وهـذا مـا يبثـه فئـة يريـدون أن ينقضوا حقيقة الإسلام من أطرافها، حتى تكون بمقدار غيرها من الديانات الروحية الـتي فـصلها أهلها عن السياسة، ثم يصبغوا هذا المقدار بأي صبغة أرادوا فيـذهب الإسـلام، فـلا القـرآن نـزل ولا محمـد ﷺ بعث ! ولا الخلفاء الراشدون جاهدوا في الله حق جهاده ! ولا الراسخون في العلـم سـهروا في تعـرف الأصـول من مواردها وانتزاع الأحكام من أصولها !.

إلى أن يقـول: فـصل الـدين عـن الـسياسة هـدم لمعظـم الـدين، ولا يقـدم عليـه المـسلمون إلا بعـد أن يكونوا غير مسلمين!! [ رسائل الإصلاح لمحمد خضر حسين ].

## الكوثري(*):

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن دين الإسلام جامع لمصلحتي الدنيا والآخرة ولأحكامهما دلالة واضحة لا ارتياب فيها، فتكون محاولة فصل الدين عـن الدولـة كفـرًا صـريحًا منابـذًا لإعـلاء كلمـة الله، وعداءً موجهًا إلى الدين الإسلامي في صميمه، ويكون هـذا الطلب مـن الطالـب إقـرارًا منـه بالانتبـاذ

(●) والمقصود من إيراد مقالة الكوثري في هذا المقام – رغم وجود بعض الاستدراكات الجوهرية على منهجه- بيان أن الأمة كلها على اختلاف طوائفها ومدارسها الفكرية والعقدية تبرأ من نحلة العلمانية وتجمع على خروجها على محكمات الملة وقواطع الشريعة.

والانفصال، فنلزمه بإقراره فنعده عضوًا مفصولاً عن جماعة المسلمين وشخصًا منفصلاً عن عقيدة أهل الإسلام! فلا تصح مناكحته ولا تحل ذبيحته؛ لأنه ليس من المسلمين ولا من أهل الكتاب !.

## يوسف القرضاوي:

بل إن العلماني الذي يرفض «مبدأ» تحكيم الشريعة من الأساس، ليس له من الإسلام إلا اسمه، وهو مرتد عن الإسلام بيقين، يجب أن يستتاب وتزاح عنه الشبهة وتقام عليه الحجة، وإلا حكم القضاء عليه بالردة، وجرد من انتمائه إلى الإسلام، أو سحبت منه «الجنسية الإسلامية» وفرق بينه وبين زوجه وولده، وجرت عليه أحكام المرتدين المارقين في الحياة وبعد الوفاة [الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه للقرضاوي: ٧٣، ٧٤].

# ثامناً: شبهات وجوابها

## الشبهة الأولى:

قد يرد على بعض الناس القول بأن العلمانية المعاصرة لم تبتدئ رد أحكام الشريعة وتبديلها، وإنما توارثت ذلك عن علمانية سابقة، وهي تسعى إلى التغيير.

ولا شك أن هذه الشبهة تعد من أبرز الشبهات التي يعتمد عليها فريق كبير من الناس، سواء منهم من يتعمدون التلبيس والكذب وهم يعلمون، أو من فتنوا بهم وهم يحسبون أنهم يعلمون. والجواب على ذلك في مسألتين:

### – المسألة الأولى:

أنه قد علم بالضرورة من دين الإسلام، بل من دين الرسل جميعًا أنه لا فرق في الحكم العام بين من يكفر بالحق ابتداء، ومن يتوارث ذلك عن غيره مع الرضا والمتابعة.

- فلا فرق بين من ابتدأ تحريف التوراة والإنجيل، وبين من توارث ذلك من اليهود والنصارى من بعد، ما داموا مقرين ومتابعين.

- ولا فرق بين من ابتدع عبادة الأصنام، وبين من تعبد لها بعد ذلك تقليدًا ومتابعة.

- ولا فرق بين عمرو بن لحي الخزاعي وهو أول من غيرّ دين إبراهيم، فأدخل الأصنام إلى الحجاز ودعا إلى عبادتها من دون الله، وشرع من الدين ما لم يأذن به الله وبين من تابعه على ذلك من العرب من بعد.

ولقد خاطب القرآن الكريم أهل الكتاب بما ارتكبه آباؤهم من قبل، وما ذلك إلا لإقرارهم له ورضاهم به، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩١] .

يقول لهم: إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان بما أنزل عليكم، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بين أيديكم وقد أمرتم باتباعهم وتصديقهم؟ وهذا خطاب لليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ومعلوم أن أحدًا من هؤلاء لم يرتكب شيئًا من ذلك، وإنما هو أمر جناه آباؤهم من قبل، فخوطبوا به لرضاهم به وإقرارهم له. ومثل ذلك كثير في القرآن.

### - المسألة الثانية:

إن القول بأن هذه العلمانية المعاصرة تسعى إلى التغيير، وأن ذلك ينفي شبهة الرضا والمتابعة أمر يحتاج إلى تفصيل:

ذلك أنه لا منازعة في صحة المبدأ في ذاته، فمن جاء على ميراث سابق من الكفر، ولكن أعلن انخلاعه عنه، وكفره به وبراءته منه، ثم توجه نحو تغييره وإزالته، فلا شك أنه لا ينسحب عليه حكم من سبقه، ولا يُسأل عن جريمة جناها غيره، بل يسلك - إن صدق - في عداد المجاهدين.

أما إذا كان يروغ ويدور، فيزعم الإيمان ويدعي التوجه إلى التغيير، ويقدم بين يدي ذلك أعمالاً هزيلة مدخولة، ثم تتجه خطاه بعد ذلك نحو الباطل الذي توارثه تدعيمًا له وتثبيتًا لأركانه، ومدافعة عنه ومجادلة دونه، بل ويوالي ويعادي على ذلك؛ فمن رضي بشرعه ومنهاجه قربه ووالاه، ومن ظن به سوى ذلك أبعده وعاداه، بل يخنق كل صوت يدعو إلى الحق، وكل دعوة تعمل على إقامة الدين والتزام شرائعه، فلا يجوز حينئذ أن يعول على قول تبين زوره، ولا على دعوى تبين بطلانها، ولا على زعم تحقق كذبه، بل الأقرب أن يلحق هؤلاء بالزنادقة الذين لا تقبل لهم توبة في أحكام الدنيا عند بعض أهل العلم، وأيًا كان الحكم على أشخاص هؤلاء فإن المقطوع به هو بطلان هذا المنهج وعدم مشايعة أهله على باطلهم بقول أو عمل.

## الشبهة الثانية:

وتتمثل هذه الشبهة في القول بأن هذا المنهج يجدد في الأمة مقولة الخوارج وينبثق من مشكاته، فهم الذي رفعوا عبر التاريخ شعار: [ لا حكم إلا لله ] وعرفوا به من دون الفرق جميعًا، وانطلقوا منه في استحلال دماء المخالفين وأموالهم !!

والجواب على هذه الشبهة أن قوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف:٤٠] . قد قصَّهُ القرآن الكريم على لسان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم قبل أن تنقله لنا دواوين التاريخ على ألسنة الخوارج! أفيكون كل من دعا إلى إقامة الدين وتحكيم الشريعة وإفراد الله بالعبادة والتشريع المطلق خارجيًا من الخوارج ؟ ترى ماذا يكون إذن مبدل الشرع، ومحل الحرام ومحرم الحلال والداعي إلى الفصل بين الدين والدولة ؟ أيكون علي بن أبي طالب ؟!.

لقد رفع الخوارج هذا الشعار ليكفّروا به أئمة الجور من المسلمين في وقت كان الأصل فيه هو التحاكم إلى الشريعة، وقيام الدولة على حراسة الدين وسياسة الدنيا به، وإن غشيها من المظالم ما غشيها، بل رفعوه في وجه أمير المؤمنين علي وهو من أئمة الراشدين! فكانوا مبطلين خارجين عن الحق!

ويرفعه اليوم المجددون من الدعاة إلى الله وقد أعلنت العلمانية وحكمت القوانين الوضعية التي تحل الربا والزنا والفواحش ما ظهر منها وما بطن وتحميها بقوة الشرطة والقضاء، يرفعونه ليردوا به الأمر إلى الله جل وعلا، ولينتصروا به لشريعتهم المضاعة وكتابهم المهجور، وليدفعوا عن الأمة شرك التشريع بما لم يأذن به الله، وباطل التحاكم في الدماء والأموال والأعراض إلى غير ما أنزل الله فكانوا مجاهدين أنصارًا لله ورسوله.

# خلاصة الوحدة السادسة

- توحيد الطاعة والانقياد: هو إفراد الله تعالى بالطاعة والانقياد، وذلك بتحكيم شرعه والقبول التام لكل ما جاء به نبيه ﷺ ، والكفر بما يتنافى مع ذلك من الأهواء البشرية والمذاهب الوضعية.

- فرق بين العلمانية وبين انحرافات التطبيق الجزئية في ظل دولة إسلامية أن الأولى تكفر بمرجعية الشريعة ابتداء في علاقة الدين بالدولة، أما الثانية فإن الخلل فيها عارض في أمور جزئية مع بقاء الإيمان بمرجعية الشريعة .

- العلمانية في الأصل لا علاقة لها بالعلم، بل تعني في الحقيقة الفصل بين الدين والدولة، أو الحياة عمومًا، وقصر الدين على جانب الشعائر التعبدية البحتة بين المرء وخالقه، بعد نزع القداسة عنه واعتباره ميراثا بشريًا بحتا.

- العلمانية ناقضة لأصل الدين من عدة أوجه، منها:

١- أنها شرك في الربوبية: لا في جانب الخلق والأمر الكوني، ولكن في جانب الهداية والأمر الشرعي.

٢- وشرك في الألوهية: فمبنى العبادة على توحيد الإرادة والقصد، وتوحيد الطاعة والاتباع، والمنازعة في الثاني مضادة لله في أمره وإشراك به في ألوهيته كالمنازعة في الأول ولا فرق .

٣- وثورة على النبوة: لما تقرر من أن حقيقة الإيمان بالنبوة تتمثل في وجوب تصديق خبر الرسول ﷺ والتزام أمره جملة وتفصيلاً .

٤- ونقض لعقد الإيمان المجمل: فإن أصل الإيمان تصديق الخبر والانقياد للأمر، فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر .

٥- واستحلال للحكم بغير ما أنزل الله: وللاستحلال صورتان:

- إحداهما: عدم اعتقاد الحرمة.

- والثانية: اعتقاد الحرمة والامتناع عن قبول هذا التحريم - وكلاهما كفر .



٦- ومنازعة في أصل دين الإسلام: بما تتضمنه العلمانية من رفض للاستسلام لله وحده، وإعلان للكفر بمرجعية وحيه في علاقة الدين بالدولة .

٧- وطاغوت تعبد الله عباده باجتنابه والكفر به: لما تقرر من أن الطاغوت هو ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع .

- إن تعبير الحكم بغير ما أنزل الله إما أن يقصد به عمل القضاة والمنفذين -الدائر بين كفر التكذيب أو الرد من جهة وبين المعصية في اتباع الهوى من جهة أخرى-، وإما أن يقصد به عمل الأصوليين والمشرعين - الذي هو كفر أكبر باتفاق.

- إن الوارث للشرائع الوضعية إما أن يصرح بالتزامه بها ورفضه لتغييرها - فلا شك في خروجه من الدين -، أو برفضها والسعي إلي تغييرها دعوة وعملاً - فهذا قد برء، وإما أن يراوغ في مواقفه - فهذا هو النفاق الذي يجب أن ترصد مواقف أصحابه بدقة حتى يعلنوا انحيازهم إلى أحد المعسكرين .

- فتاوى أئمة المسلمين في علمانية التشريع قاطعة الدلالة علي أن العلمانية لا تجتمع مع أصل الإيمان .

- شبهات القائلين بتوارث هذه العلمانية وعدم ابتدائها أو القائلين بأن الدعوة إلى حكم الله هي دعوى الخوارج .. شبهات مردودة .

# الوحدة السابعة

## أولاً: توحيد الأسماء والصفات

### تمهيد:

توحيد الأسماء والصفات أحد أركان الإيمان بالله عز وجل، وأحد أقسام توحيده الثلاثة، وقد كثر فيه الجدل ما بين غلاة وجفاة، ولا يتسنى لأحد أن يعبد الله على بصيرة حتى يعرفه، فإن من عرف الله أحبه، ومن أحبه اجتمع قلبه على عبادته وحده، ولا تتسنى معرفة الله عز وجل معرفة صحيحة إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والوقوف من ذلك على الجمل الثابتة التي تصون اعتقاده فتنأى به عن الشعاب التي تاهت فيها خطى المتكلمين والمتنطعين من قبل، كما تنأى به عن التناول الجدلي والجاف الذي ألجأت إليه المواجهة مع الفرق المنحرفة عبر التاريخ، والذي أفقد الدارسين لهذا العلم متعة التحقق بمعاني هذه الأسماء والصفات والتوسل بها إلى الله عز وجل.

إن الله جل وعلا يقول في كتابه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ ﴾ [ الأعراف: ١٨٠ ].

**وهذا الدعاء يتضمن دعاء المسألة ودعاء العبادة:**

- أما دعاء المسألة فهو أن تقدم بين يدي مطلوبك من أسماء الله ما يناسب المقام، فعندما تختلط عليك الأمور وتمس حاجتك إلى بصيص من نور تلوذ باسمه الهادي فتقول: يا هادي اهدني! وعندما يتعاظمك ذنبك تلوذ باسمه الغفور فتقول: يا غفور اغفر لي، وعندما تحتوشك الكروب وتحاصرك الشدائد تلوذ باسمه المغيث فتقول: يا مغيث أغثني، وهكذا.

- وأما دعاء العبادة فهو التعبد إلى الله بمقتضى هذه الأسماء، فتتوب إليه لأنه التواب، وتسأله لأنه هو الكريم، وتخافه بالغيب لأنه هو السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا تقنط من رحمته لأنه الغفور الرحيم، وهكذا.

هذا وإن توحيد الأسماء والصفات من القضايا الشائكة التي تفرقت حولها الفرق في ماضي هذه الأمة وحاضرها، وقد هلك فيها فريقان من الناس:

- المشبهة الذين غلوا في إثبات صفات الله عز وجل، حتى هووا إلى دركة التشبيه والتمثيل!

- والمعطلة الذين غلوا في باب النفي والتنزيه، فهووا إلى دركة التحريف والتعطيل!

وهدى الله أهل السنة والجماعة إلى العقيدة الوسط، فأثبتوا لله ما أثبته الله عز وجل لنفسه وما أثبته له رسله، ونفوا عن الله عز وجل ما نفاه الله عن نفسه وما نفته عنه رسله، بلا تمثيل ولا تعطيل، كما قال تعالى:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [ الشورى: ١١ ] .

والناس في تناولهم لهذه القضية في واقعنا المعاصر طرفان وواسطة:

- فمنهم من غلا فيها غلوًا منكرًا، فأحيا الخلافات المندثرة حولها، وفتن العامة بها، وألزمهم بتفصيلات ومصطلحات لا تبلغها عقولهم، ولا ترقى إليها مداركهم، وأثار حولها من الجدل والخصومات ما لا يعلم مداه إلا الله، وجعل ذلك كله من معاقد الولاء والبراء !

- ومنهم من فرط فيها تفريطًا منكرًا، فهمَّش قيمتها، ونهى عن الاشتغال بها واعتبرها من قضايا الفتنة التي ينهى عن مجرد الدخول فيها، وتستمطر اللعنات على من أيقظها !

- وبين هؤلاء وهؤلاء وقف أهل القصد والاعتدال، الذين لم يتعمقوا فيها تعمق الأولين، ولم يجفوا عنها جفاء الآخرين، بل ألزموا العامة فيها بالجمل الثابتة التي لا لبس فيها ولا غموض، وأحالوا إلى أهل العلم ما وراء ذلك من الجزئيات والتفاصيل التي لا تبلغها عقول العامة ولم تتهيأ لها، واعتبروا بواقع الفتنة والغربة الذي يغشى الأمة في هذه الأيام، فلم يثربوا على المخالف التثريب الذي يحمله على الانحياز إلى معسكر الخصوم ! ولم يسكتوا عنه السكوت الذي تغيم معه الرؤية وتشتبه به الأمور، بل المداراة والتألف مع الإلحاح في البلاغ والبيان.

ونود في هذه الدراسة أن نشير إلى بعض القواعد الكلية في باب توحيد الأسماء والصفات التي لا يسع المبتدئ جهلها، محيلين فيما وراء ذلك إلى المراجع والمطولات.

# ثانياً: ثوابت ومحكمات في توحيد الأسماء والصفات

## (١) الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى:

فكل أسمائه تعالى قد أوفت على الغاية في الحسن، وذلك لتضمنها صفات كاملة لايرد عليها النقص بوجه من الوجوه لا احتمالاً ولا تقديرًا.

ـ فالحي من أسمائه تعالى يتضمن الحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم والتي لا يلحقها زوال، والتي تستلزم كمال الصفات من السمع والبصر والعلم والقدرة وغيرها.

ـ والعليم من أسمائه تعالى يتضمن العلم المحيط الكامل الذي لم يسبق بجهل، ولا يلحقه نسيان، قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الأنعام: ٥٩ ] ، وقال تعالى: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [ طه: ٨٧ ] .

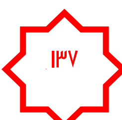
## (٢) أسماؤه تعالى توقيفية وغير محصورة بعدد معين:

أما أن أسماءه تعالى توقيفية فلأن العقل لا يستقل بإدراكها، فيجب الوقوف في ذلك على ما جاء به الكتاب والسنة فلا يزاد على ذلك ولا ينقص، وإلا كان قولاً على الله بغير علم وقد قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأعراف: ٣٣ ] .

وأما أن أسماءه تعالى غير محصورة بعدد معين فلقوله ﷺ في الحديث المشهور: (( أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك )) [ رواه أحمد وابن حبان والحاكم ] . وما استأثر به في علم الغيب عنده لا سبيل لاطلاع أحد من البشر عليه.

وأما قوله ﷺ : (( إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة )) فلا يدل على حصر الأسماء في هذا العدد، وإنما هو بمثابة قولك: عندي مائة درهم للصدقة؛ فإن هذا القول لا يمنع من



وجود دراهم أخرى لديك لم تعدها للصدقة، ويصبح معنى الحديث: إن هذا العدد من شأنه أن من أحصاه دخل الجنة، ولو كان المراد الحصر لكانت العبارة: إن أسماء الله تسعة وتسعون اسمًا من أحصاها دخل الجنة، أو نحو ذلك.

ولم يصح عن النبي ﷺ في تعيين هذه الأسماء شيء، والحديث الذي روي في ذلك حديث ضعيف، ولأهل العلم اجتهادات مختلفة في تعيينها بناء على النظر في نصوص الكتاب والسنة.

## ما المراد بإحصاء أسماء الله ؟

اختلف أهل العلم في المراد بقوله ﷺ: (( من أحصاها )).

٭ فقال قوم: إن المقصود بذلك دعاء الله بها كلها والثناء عليه بها جميعًا، وذلك يستلزم حفظها بطبيعة الحال، وقد اختار هذا البخاري رحمه الله، فقد فسر الإحصاء بالحفظ، واستدل له برواية: ((من حفظها )).

٭ وقال آخرون: إن المراد بذلك الاعتبار بمعانيها والعمل بموجبها، فما كان يسوغ الاقتداء به كالكريم والرحيم فإنه يمرن نفسه على التحلي به، وما اختص الله به نفسه كالمتكبر والجبار فعليه أن يفرد الله به وألا ينازعه شيئًا منه، وما كان فيه معنى الوعد وقف فيه عند الطمع والرغبة، وما كان فيه معنى الوعيد وقف فيه عند الخشية والرهبة، ولا تنافي بين هذين القولين بل يصح تفسير الإحصاء بهما جميعًا، ويكون المراد به العلم والعمل، والله أعلم.

## (٣) أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف:

فهي أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي بالاعتبار الأول مترادفة، لدلالتها على مسمى واحد وهو الله عز وجل، وبالاعتبار الثاني متباينة لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص. فعندما تقرأ قول الله عز وجل:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [ الحشر: ٢٣- ٢٤ ] .

فستجد أن كل هذه أسماء لمسمى واحد وهو الله عز وجل، ولكن معاني هذه الأسماء مختلفة بطبيعة الحال، فمعنى الملك غير معنى القدوس وهكذا.

## (٤) الإلحاد في أسماء الله هو الميل بها عما يجب فيها:

### وهذا الإلحاد أنواع، منها:

أ- التعطيل: وهو أن ينكر شيئا منها أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام.

ب- التشبيه: وهو تمثيلها بصفات المخلوقين.

ج- تسمية الله تعالى بما لم يسم به نفسه، كتسمية النصارى له ( الأب)، وتسمية الفلاسفة له ( العلة الفاعلة )؛ لأن أسماء الله كما سبق القول توقيفية، فتسميته تعالى بما لم يسم به نفسه ميل بها عما يجب فيها فضلاً عن بطلان هذه الأسماء في نفسها.

د- اشتقاق أسماء للأنداد من أسمائه تعالى، كما فعل المشركون في اشتقاق العزى من العزيز، واشتقاق اللات من الإله على - أحد القولين-.

## (٥) صفاته تعالى صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه:

فكل ما وصف الله به نفسه فهو كمال مطلق لا يرد عليه النقص بحال من الأحوال، كالعلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر ونحوه، قال تعالى:

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [ النحل: ٦٠ ] .

والمثل الأعلى هو الوصف الأعلى.



وعلى هذا فإذا كانت الصفة نقصًا محضًا لا كمال فيها فهي ممتنعة في حقه تعالى، كالموت والجهل والعجز والنسيان والعمى والصمم والبكم ونحوه، قال تعالى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [ الفرقان: ٥٨ ] ، وقال تعالى: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [ طه: ٥٢ ] .

وقال ﷺ في وصف الدجال: (( إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور )).

وإذا كانت الصفة كمالاً في حال ونقصًا في حال فإنها تجوز على الله في الحال التي تكون فيها كمالاً وتمتنع في الحالة التي تكون فيها نقصًا، وذلك كالمكر والخداع ونحوه، فإن هذه الصفات تكون كمالاً إذا كانت في مقابلة من يقابلون الفاعل بمثلها لأنها تدل حينئذ على القدرة، وتكون نقصًا في غير هذه الحال؛ ولهذا لم يذكرها الله تعالى في صفاته على سبيل الإطلاق وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها، كقوله تعالى:

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] ، وقوله تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [ الطارق: ١٥- ١٦ ] ، وقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [ البقرة: ١٤- ١٥ ] ، ولهذا لم يذكر الله تعالى أنه خان من خانوه، لأن الخيانة خدعة في مقام الائتمان، وهي صفة ذم مطلقًا، قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [ الأنفال: ٧١ ] ؛ فقال ﴿ فَأَمْكَنَ ﴾ مِنْهُمْ ولم يقل فخانهم.

## (٦) باب الصفات أوسع من باب الأسماء:

وذلك لأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله تعالى وأفعاله لا منتهى لها، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [ لقمان: ٢٧ ] ، فمن صفاته تعالى الأخذ والإمساك والبطش كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [ هود: ١٠٢ ] ، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ [فاطر: ٤١ ] ، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [ البروج: ١٢ ].

ولا يصح أن نشتق له منها أسماء فنقول: إن من أسمائه الآخذ والممسك والباطش !!

## (٧) الجمع بين النفي والإثبات هو حقيقة التوحيد في باب الأسماء والصفات:

لأن الاقتصار على النفي المحض تعطيل محض، والاقتصار على الإثبات المحض لا يمنع المشاركة، فلو قلت: . ليس محمد بعالم. فقد نفيت عنه صفة العلم وعطلته منها وإن قلت: ﷺ محمد عالم ﷺ فإنك وإن أثبت له صفة العلم إلا أن هذا لا يمنع مشاركة غيره له في ذلك، بخلاف ما لو قلت: ( لا عالم إلا محمد ) فقد أثبت له صفة العلم ونفيتها عن غيره، فتكون موحدًا له في هذه الصفة.

## (٨) صفات الله تعالى

### قسمان: ثبوتية والغالب فيها التفصيل، ومنفية والغالب فيها الإجمال.

ويراد بالصفات الثبوتية كل ما وصف الله به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ كالحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والاستواء على العرش ونحوه. وإنما كان الغالب فيها التفصيل لأن ذلك يظهر من كمال الموصوف بها ما لم يكن معلومًا من قبل.

وأما الصفات المنفية فهي كل ما نفاه الله عن نفسه في كتابه أو سنة رسوله ﷺكالموت والجهل والظلم والعجز وغير ذلك من صفات النقص التي لا تليق بذاته تعالى، وإنما كان الغالب فيها هو الإجمال لأن ذلك أبلغ في تعظيم الموصوف وأكمل في التنزيه، ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر من الصفات المنفية التي نفاها الله عن نفسه.

## (٩) إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل:

إن جماع القول في باب الأسماء والصفات أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وما وصفته به رسله، إثباتا بلا تمثيل ولا تكييف، وتنزيهًا بلا تعطيل، وقد جمع الله ذلك في قوله تعالى:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] .

والتمثيل هو اعتقاد المثبت أن ما أثبته من صفات الله تعالى مماثل لصفات المخلوقين، والتشبيه كالتمثيل، وقد يفرق بينهما بأن التمثيل التسوية في كل الصفات، والتشبيه التسوية في أكثرها، لكن التعبير بنفي التمثيل أولى لموافقة القرآن، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾.

وأما التكييف فهو أن يعتقد المثبت أن صفات الله على نحو كذا وكذا من غير أن يقيدها بمماثل، وكل من التكييف والتمثيل باطل بلا نزاع.

**ولهذه القاعدة دليلان: نقلي وعقلي:**

- **أما الدليل النقلي:** فمثل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١] .

ففي قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ رد للتكييف والتمثيل. وفي قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ رد للإلحاد والتعطيل.

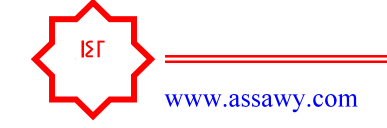
وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

- **وأما الدليل العقلي:** فلأن القول في أسماء الله وصفاته من باب الخبر المحض الذي لا يمكن للعقل إدراك تفاصيله، فوجب الوقوف فيه على ما جاء به السمع، ولهذا لما سئل مالك - رحمه الله - عن قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] . كيف استوى؟ أطرق - رحمه الله - حتى علاه الرحضاء ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

## (١٠) لا يستلزم الاشتراك في الأسماء والصفات تماثل المسميات والموصوفات:

**ولهذه القاعدة أدلة نقلية وعقلية:**

- **فمن النقل** نجد أن الله تعالى قد أثبت لنفسه السمع والبصر، في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]. وأثبت للإنسان السمع والبصر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢] . ونفى أن يكون سمعه وبصره كسمع الإنسان وبصره، فقال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] .



وفي باب العلم نجد أن الله قد أثبت لنفسه العلم، في مثل قوله تعالى: ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] . وأثبت لعباده العلم في مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٠]. وليس علم الإنسان كعلم الله عز وجل، فقد قال تعالى عن نفسه: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴾ [طه: ٩٨] . وقال عن بني آدم: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الاسراء: ٨٥].

ومن العقل ما هو معلوم البداهة من أن المعاني والأوصاف إنما تتقيد وتتميز بحسب ما تضاف إليه، فللذباب جسم وقوة، وللفيل جسم وقوة، وشتان ما بين الجسمين والقوتين ! فإذا كان الاشتراك في الاسم والصفة في عالم المخلوقات لا يستلزم التماثل في الحقيقة، فانتفاء التلازم في ذلك بين الخالق والمخلوق أولي وأجلي.

## (١١) الأصل هو إجراء نصوص الصفات على ظاهرها بغير تحريف:

وظاهر النصوص: هو ما يتبادر منها من المعاني بحسب ما تضاف إليه وما يحيط بها من القرائن. فليس الظاهر هو ما يتوهمه المؤولة من التمثيل والمعاني الفاسدة، فإن هذا - وإن كان غير مراد - لكنه ليس ظاهر نصوص الكتاب والسنة.

فقد اتفق السلف والأئمة على أن نصوص الصفات تجري على ظاهرها اللائق بالله عز وجل من غير تحريف، وأن هذا الظاهر لا يقتضي تمثيل الخالق بالمخلوق.

وبيان ذلك أن من صفات البشر ما هو معانٍ وأعراض قائمة بهم كالعلم والقدرة والإرادة، ومنها ما هو أعيان وأجسام كالوجه واليدين، ومن المعلوم أن الله قد وصف نفسه بالعلم والقدرة والإرادة، ولم يقل أحد: إن علمه وقدرته وإرادته كعلم البشر وقدرتهم وإرادتهم. كما وصف نفسه بأن له وجهًا ويدَيْن، ولم يقل أحدٌ من السلف أو الأئمة كذلك: إن وجهه تعالى ويديه كوجوه البشر وأيديهم، بل كما أن ذاته لا تشبه الذوات فكذلك صفاته لا تشبه الصفات.

ومن قال من المؤولة: إن ظاهر نصوص الصفات غير مراد فقد أخطأ في تحديد المراد بهذا الظاهر ! لأنه يكون قد فسر اللفظ بمعنى فاسد لا يدل عليه، أو أخطأ في رد معنى ظاهر صحيح توهم أنه فاسد بناء على فهم مغلوط لديه.

- فمن زعم أن ظاهر قوله تعالى عن سفينة نوح: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر:١٤]. أنها تجري في عين الله، فقد أبعد النجعة لأن هذا ليس بظاهر، ولا هو المتبادر من اللفظ فيما يفهمه عقلاء الناس بل وسفهاؤهم عند سماع هذه الآية ! بل يفهم الناس جميعًا أن السفينة تجري وأن الله يكلؤها بعينه.

- ومن زعم أن ظاهر قوله تعالى في الحديث القدسي: (( ابن آدم مرضت ولم تزرن )) » إلخ أن الله عز وجل يمرض ويجوع ويعطش، قيل له: ليس هذا هو المعني المتبادر الظاهر من جملة الحديث؛ لأن بقية الحديث ترد هذا الظاهر المزعوم، وتبين أن الذي مرض وجاع وعطش إنما هو العبد وليس الله رب العالمين ! وذلك في قوله تعالى في الحديث نفسه، مبينًا لمعني هذه العبارة: (( أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده... )) » إلخ.

وقد يرد المؤولة معنى صحيحًا يتوهمون فساده، كما ردوا حقيقة الاستواء بدعوى أنه يستلزم أن يكون الله محدودًا وهو محال، وقد أتوا من جهة توهم هذا اللازم الفاسد ؛ لأن استواء الله على عرشه لا يقتضي أن يكون الله محدودًا - وإن كان العرش محدودًا- لأنه علو يليق بجلال الله وعظمته ولا يماثل علو المخلوق على المخلوق.

## ثالثاً: الزائغون عن الحق في باب الأسماء والصفات

### الممثلة والمعطلة:

**فالممثلة:** غلَوا في جانب الإثبات وقصَّروا في جانب النفي، فأثبتوا صفات الله على نحو يماثل صفات المخلوقين، فأثبتوا لله وجهًا ويدًا وعينًا كوجه الإنسان ويده وعينه.

وشبهتهم في ذلك قياس الغائب على الشاهد، يقولون: إن القرآن خاطبنا بما نفهم ونعقل ونحن لا نفهم ولا نعقل إلا ما كان شاهدًا، فإذا خاطبنا عن الغائب بشيء وجب حمله على الشاهد.

**ومذهبهم باطل ومنكر يرده النقل والعقل.**

- **فمن النقل** أن الله عز وجل قد نفى أن يكون له مماثل، في مثل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [ الإخلاص: ٤ ] . ونهى أن تضرب له الأمثال، في مثل قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل: ٧٤] .

- **ومن العقل** أن التباين بين الخالق والمخلوق في الذات يستلزم التباين في الصفات، فالمعاني والصفات تتميز وتتقيد بحسب ما تضاف إليه، وأن القول بالمماثلة يقتضي النقص وهو محال وضلال.

وأما قياسهم الغائب على الشاهد فهو باطل من وجهين:

أ- أن ما أخبر الله به عن نفسه أخبر به مضافًا إلى ذاته المقدسة، فيكون على وجه يليق بذاته المقدسة لا مماثلاً لمخلوقاته.

ب- أن المماثلة تستلزم نقص الخالق، واعتقاد ذلك كفر وضلال.

**والمعطلة:** غلَوا في جانب النفي وقصَّروا في جانب الإثبات، فأنكروا أسماء الله وصفاته إنكارًا كليًا أو جزئيًا، وحرفوا من أجل ذلك نصوص الكتاب والسنة، وهم طوائف منهم: الأشاعرة والمعتزلة والجهمية والقرامطة والفلاسفة، على تفاوت ما بينهم في التعطيل والتحريف.

وأظهر هذه الطوائف في واقعنا المعاصر هم الأشاعرة، وإن كانوا أقرب هذه الطوائف إلى الحق. وطريقتهم في ذلك أنهم أثبتوا بعض الصفات ونفوا بعضها الآخر وردوا لذلك من النصوص ما أمكنهم رده، وأولوا ما أعجزهم رده، فأثبتوا صفات الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، على خلاف بينهم وبين السلف في كيفية إثباتها لأن العقل قد دل عليها، ونفوا كثيرًا من الصفات بدعوى أن إثباتها يستلزم التشبيه.

**ومما يرد عليهم فيما ذهبوا إليه ما يلي:**

- أن منهج السلف الصالح في هذا الباب هو الرجوع إلى الكتاب والسنة وليس إلى العقل، قال أحمد - رحمه الله: نَصِفُ الله بما وصف به نفسه، ولا نتعدى القرآن والحديث.

- أن الرجوع إلى العقل في هذا الباب مخالف للعقل ؛ لأنه من الأمور الغيبية التي ليس للعقل فيها مجال، فإن العقل لا يمكنه أن يدرك بالتفصيل ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الله عز وجل، وإنما مرد ذلك إلى النقل.

- أن تحكيم العقل في ذلك يستلزم الاختلاف والتناقض، فإن العقول متفاوتة، وما يثبته هذا قد ينفيه ذاك، ولا يخفى أن تناقض الأقوال دليل على فسادها، ورحم الله مالك بن أنس حيث قال: ( أوكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به محمد ﷺ لجدل هؤلاء ؟!).

- أنه يلزمهم في المعنى الذي صرفوا إليه نصوص الصفات ما يلزمهم في المعنى الذي نفوه مع وقوعهم في التحريف، فإن نفوا حقيقة اليد حتى لا يقعوا في التشبيه وتأولوها بالقوة، فإنه يلزمهم في إثبات القوة نظير ما يلزمهم في إثبات اليد الحقيقية؛ لأن للمخلوق قوة كذلك فإثبات القوة لله يستلزم التشبيه بناء على هذا القاعدة !

فإن قالوا: إننا نثبت القوة على وجه يليق بذاته تعالى لا على وجه المماثلة للمخلوقين. قيل لهم: وكذلك اليد ولا فرق !

- أن القول في بعض الصفات كالقول في بعض، فمن أثبت لله شيئًا مما أثبته الله لنفسه من الصفات لزمه إثبات الباقي، أو الوقوع في التناقض لا محالة !

فمن أثبت حقيقة الإرادة ونفى حقيقة المحبة، قيل له: لا فرق بين ما أثبته من حقيقة الإرادة وما نفيته من حقيقة المحبة، فإن كان إثبات حقيقة المحبة يستلزم التمثيل فكذلك إثبات حقيقة الإرادة، وإن كان إثبات حقيقة الإرادة لا يستلزم التمثيل فكذلك إثبات حقيقة المحبة، فلزمك إثبات الجميع أو نفي الجميع أو التناقض !

فإن قال: أثبت إرادة تليق بجلال الله لا على وجه المماثلة للمخلوقين. قيل له: وكذلك في المحبة.

- أن القول في الذات كالقول في الصفات، فكما أثبتنا لله ذاتا لا تماثل ذوات المخلوقين لزم أن نثبت له صفات لا تماثل صفات المخلوقين. وهذا يتضمن الرد على الزائغين جميعًا سواء كانوا من المعطلة أو من الممثلة.

## رابعاً: الفرق بين أسماء الله وصفاته

أسماء الله كل ما دل على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به تعالى مثل العليم الحكيم السميع البصير، فإن هذه الأسماء دلت على ذات الله وعلى ما قام بها من العلم والحكمة والسمع والبصر، أما الصفات فهي نعوت الكمال القائمة بالذات كالعلم والحكمة والسمع والبصر، فالاسم دل على أمرين، والصفة دلت على أمر واحد، ولهذا يقال: الاسم متضمن للصفة والصفة مستلزمة للاسم في الأعم الأغلب، ويجب الإيمان بكل ما ثبت منهما عن الله تعالى أو عن النبي ﷺ على الوجه اللائق به سبحانه مع الإيمان بأنه تعالى لا يشبه أحدًا من خلقه في شيء من صفاته كما أنه سبحانه لا يشبههم في ذاته، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [ الشورى:١١] .

# خلاصة الوحدة السابعة

ـ دعاء الله بأسمائه يتضمن دعاء المسألة ودعاء العبادة:

ـ أما دعاء المسألة فهو أن تقدم بين يدي مطلوبك من أسماء الله ما يناسب المقام، وأما دعاء العبادة فهو التعبد إلى الله بمقتضى هذه الأسماء.

⋆ هلك في قضية الأسماء والصفات فريقان من الناس:

- المشبهة الذين غلوا في إثبات صفات الله عز وجل.

- والمعطلة الذين غلوا في النفي والتنـزيه.

- وأما أهل السنة والجماعة فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسله، ونفوا عنه عز وجل ما نفاه عن نفسه وما نفته عنه رسله، بلا تمثيل ولا تعطيل.

⋆ الناس في تناولهم لهذه القضية في واقعنا المعاصر طرفان وواسطة:

- فمنهم من غلا فيها غلواً منكراً، فأحيا الخلافات المندثرة حولها.

- ومنهم من فرط فيها تفريطاً منكراً، فهمش من قيمتها ونهى عن الاشتغال بها.

- وأما أهل القصد والاعتدال فألزموا العامة فيها بالجمل الثابتة، وأحالوا إلى أهل العلم ما وراء ذلك من الجزئيات والتفاصيل.

⋆ من الثوابت والمحكمات في توحيد الأسماء والصفات ما يلي:

١- الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى:

- فكل أسمائه تعالى قد أوفت على الغاية في الحسن.

٢- أسماؤه تعالى توفيقية وغير محصورة بعدد معين:

والمراد بإحصاء أسمائه تعالى في قوله ﷺ: ((من أحصاها دخل الجنة))؛ دعاء الله بها كلها والثناء عليه بها جميعاً.

وقال آخرون: عن المراد بذلك: الاعتبار بمعانيها والعمل بموجبها.

٣- أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف: فهي أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه المعاني.

٤- الإلحاد في أسماء الله هو الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع، منها:

- التعطيل. - التشبيه.

- تسمية الله تعالى بما لم يسم به نفسه.

- اشتقاق أسماء للأنداد من أسماء الله تعالى.

٥- صفاته تعالى صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه:

وعلى هذا فإذا كانت الصفة كمالاً في حال ونقصاً في حال فإنها تجوز على الله في الحالة التي تكون فيها كمالاً، وتمتنع في الحالة التي تكون فيها نقصاً.

٦- باب الصفات أوسع من باب الأسماء:

لأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله تعالى، وأفعاله لا منتهى لها.

٧- الجمع بين النفي والإثبات هو حقيقة التوحيد في باب الأسماء والصفات.

٨- صفات الله تعالى قسمان:

- ثبوتية: والغالب فيها التفصيل.

- منفية: والغالب فيها الإجمال.

٩- عقيدة أهل السنة في باب الأسماء والصفات: إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل: ولهذه القاعدة دليلان:

- الدليل النقلي: مثل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.[الشورى:١١].

- الدليل العقلي: وجوب الوقوف في القول في الأسماء والصفات على ما جاء به السمع؛ لأن القول فيها من باب الخبر المحض الذي لا يمكن للعقل إدراك تفاصيله.

١٠- لا يستلزم الاشتراك في الأسماء والصفات تماثل المسميات والموصوفات.

١١- الأصل هو إجراء نصوص الصفات على ظاهرها بغير تحريف.

١٢- الزائغون عن الحق في باب الأسماء والصفات فريقان: الممثلة والمعطلة.

١٣- الفرق بين أسماء الله وصفاته: أن أسماء الله كل ما دل على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به تعالى، أما الصفات فهي نعوت الكمال القائمة بالذات.

# خاتمة

فإننا نختم هذه الدراسة بالتأكيد على أهمية تصحيح المفاهيم، وإزالة ما عسى أن يكون قد لحق بحقائق الإسلام من الغبش كمقدمة ضرورية لحشد كتائب الحق وتجييشها في معركة الإسلام المقبلة!

إن الباطل يحشد أجناده، ويؤجل خلافاته الداخلية إلى حين، ويستنفر كل شيعه وأحزابه لضرب الإسلام والتهييج على دعاته وحملة شريعته، في تواطؤ غير مسبوق في تاريخنا المعاصر.

وإن ترتيب الأوراق داخل الصف الإسلامي وجمع رجالاته حول محكمات الإسلام وثوابته عقيدة وشريعة – بعد بلورتها وإزالة ما علق بها من الغبار والأتربة – لهو أولى الخطوات الجادة على طريق المواجهة المحتومة ! فلن يثبت في هذه المواجهة إلا من كان على بصيرة من أمره فاستيقن بما هو عليه من الحق وبما عليه خصومه من الباطل، فلا تتقلقل في قلبه الحقائق، ولا ترتجف فوق شفاهه الكلمات، ولا تضطرب في يديه أسلحة المواجهة !

وأمري وما أمري على بغمة        كأسطع شمس لا أراها تماريا

ولا يفوتنا أن نذكر أن هذا لا يعني بالضرورة إرهاق الساحة بتفصيلات وجزئيات لا تتهيأ لاستيعابها العامة وأشباه العامة، وإنما المقصود هو بلورة الجمل الثابتة والقواعد الكلية في الدين، التي تمثل الشرع المحكم الذي تنتصر له سيوف المسلمين لتكون إطاراً مرجعيًا للصحوة الإسلامية المعاصرة.

فاللهم قيض لهذه الأمة من يردها إلى دينك ردًا جميلاً، وأبرم لها أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، ويحكم فيه بكتابك وسنة نبيك محمد ﷺ إنك ولي ذلك والقادر عليه. اللهم آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

# فهرس الموضوعات

